الفصل الخامس عشر

النظام الاجتماعى
ودورة الصفوة فى اطاره

المحتويات

مقدمة

أولا : النظام الاجتماعى ، مشكلاته التحليلية والتاريخية .

ثانيا : الرواسب ، القوى الدافعة للاستقرار والتغير .

ثالثا : المشتقات ، التعبير الظاهرى عن عواطف كامنة .

رابعا : دورة الصفوة والتأرجح بين الثعالب والأسود

خامسا : النسق الاجتماعى بين التوازن والتغير .

سادسا : نظرية فلفريدو باريتو ، رؤية نقدية .

مقدمة :

اذا كان توماس هوبز قد حدد مشكلة النظام تحديد تصوريا وافتراضيا ، فان التفاعلات التى عاشها فلفريدو باريتو – وقت صياغته لنظريته – تؤكد أنه لمس الأبعاد الواقعية لمشكلة النظام الاجتماعى . حيث عايش واقعا اجتماعيا منهاراً انطلق منه فى صياغة نظريته . بيد أنه برغم اختلاف نقطة الانطلاق بين هوبز وباريتو فيما يتعلق بتحديد مشكلة النظام الاجتماعى ، فإنه تبقى أمامنا بعض التماثلات .

فمن ناحية نجد أن فلفريدو باريتو قد تصور الأساس البيلوجى للطبيعة البشرية ، والمتمثل فى الغرائز أو الرواسب باعتباره المتغير الذى يتحكم فى تحديد طبيعة المجتمع القائم . فرواسب الأسود هى التى تحدد طبيعة النظام السياسى والمجتمع ، وكذلك تفعل رواسب صفوة الثعالب . ويتسق ذلك الى حد كبير مع تأكيد هربز فى تحديد للطبيعة البشرية ، فى أنها أقرب ماتكون الى الحالة الحيوانية ، حيث الأنسان مجموعة من الغرائز الأنانية الشرهه ، وهى التى يحاول الانسان اشباعها ، هذه الغرائز البدائية هى العناصر الكامنة وراء تأسيس النظام السياسى لتأمين استمرار اشباعها ، وإلا إنحدر الانسان الى حرب الكل ضد الكل ، وواجه احتمالية الحرمان من الاشباع .

ويشكل الإيمان بدور الصفوة فى السيطرة على المجتمع وضبطه بغض النظر عن مشاركة الجماهير من القضايا العامة التى تشكل نطاق تماثل بين كلا المفكرين . فمن خلال العقد الاجتماعى يتخلى البشر أطراف التعاقد على حقهم فى حكم أنفسهم لهذا الرجل أو هؤلاء الرجال ، لكى يتولون حكمهم بما يضمن إستقرار المجتمع . وهى نفس الصيغة التى نجدها عند باريتو ، حيث التاريخ تصنعه الصفوات المتعاقبة دون أن يكون للجماهير دور فى تشكيل التاريخ . وهو الأمر الذى يعنى اتجاها للايمان بالسلطة القاهرة والضابطة والقادرة على تأكيد تماسك المجتمع ووحدته واستمراره من قبل كلا المفكرين .

ان هنك تماثلا واضحا بين توماس هوبز وفلفريدو باريتو يتعلق بالقضية الخاصة بالأسبقية أو الأولوية بين الفرد والمجتمع . حيث نجد أن توماس هوبز يؤكد على أسبقية الفرد على المجتمع . فالأفراد قد وجدوا منعزلين فى حالة الطبيعة لايعرفون أية معانى أخلاقية الى أن قادتهم تهديدات حالة حرب الكل ضد الكل ، واحتمالات التأثير على تحقيق إشباع الحاجات الأساسية الى الاتفاق على تأسيس القواعد الأخلاقية المؤسسة للمجتمع ، من خلال صيغة العقد الاجتماعى . إتساقا مع ذلك نجد أن فلفريدو باريتو يؤكد على الرواسب الكامنة فى

أعماق الذات الفردية – وهى ذات طبيعة بيلوجية – باعتبارها التى تؤسس المشتقات أو المعانى الأخلاقية التى بناءً عليها تتولى الصفوة الحاكمة صياغة المجتمع . وحسب طبيعة الرواسب ، تتحدد الأخلاق ، وتتحدد طبيعة المجتمع .

وذلك يوحى بأننا أمام تشخيص متماثل لمشكلة النظام الاجتماعى ، وأسلوب متماثل لحل هذه المشكلة . الخلاف الأساسى بين كليهما أن توماس هوبر أدرك المشكلة ادراكا افتراضيا وقدم لها حلا افتراضيا . أما عند باريتو فقد كانت مشكلة النظام الاجتمعى لها وجودها الواقعى ، ومن ثم فالتشخيص الذى قد مه باريتو تميز بالواقعية كذلك ، وهو التصور الذى نعرض له فى الصفحات التالية :

أولا : النظام الاجتماعى ، مشكلاته التحليلية والتاريخية .

ككل الأنساق النظرية فى هذه المرحلة أهتم باريتو بقضية النظام الاجتماعى ولو على طريقته الخاصة . ولقد دفع باريتو الى الاهتمام بهذه القضية نوعين من القضايا أو المشكلات . الأولى مايمكن أن نسميها بالمشكلات التاريخية ، ونقصد بها مجموعة التفاعلات التى خلقت مجموعة من العوامل التى ساعدت على انهيار النظام الاجتماعى فى المرحلة التاريخية التى عايشها باريتو ، وهو مايعنى بداية الاهتمام بقضية النظام الاجتماعى ، وماهى أفضل الظروف ملائمة لاستمرار النظام الاجتماعى بالحيوية المطلوبة . وتتمثل المجموعة الثانية فى المشكلات التحليلية ، وهى مجموعة المشكلات أو القضايا التى ينتفى عنه الطابع الواقعى ، والتى يكمن مصدرها فى التصورات التحليلية والنظرية للمفكر أساسا ، كتلك التصورات التى تتعلق بالطبيعة الانسانية ، أو التى تتصل بتوزيع الفرص فى المجتمع ، أو الخاصة باستمرارية الصفوة فى السلطة ، أو انهيارها لتحل صفوة جديدة فى اطار مايعرف بدورة الصفوة .

وفيما يتعلق بمجموعة المشكلات التاريخية نجد أن الواقع التاريخى لإيطاليا قد عانى من مشكلات عديدة خلال هذه المرحلة .

١ – وتتمثل أولى هذه المشكلات فى حالة اليأس العامة التى انتابت النظام الاجتماعى خلال هذه المرحلة . ففى ١٨٧١ حينما أصبحت روما عاصمة أيطاليا الموحدة كان ذلك يعنى أن الصراع الطويل من أجل التحرير والوحدة الإيطالية قد بلغ غايته . وبرغم انتشار حالة من الإبتهاج العامة فى إيطاليا ، فانه كانت هناك حالة من اليأس أيضا ، أو لنقل حالة من الحزن على انتهاء مرحلة ممتعة ومنعشة فى التاريخ الإيطالى . وقد صور بنديتو كروس Benedetto Croce بصورة دقيقة روح هذه المرحلة حينما كتب .

(تعنى نهاية كل فترات التاريخ موت شئ ما ، وبرغم أن هذه النهاية عادة ماتكون مرغوبة ويسعى الجميع من أجلها .. فككل موت نجدها عادة ماتكون مغلفة بمناخ من الأسى والحزن . فلم تعد هناك نضالات شابة الآن ، ولاسعيا متشوقا من أجل المثل الجديدة ، والبعيدة عن التحقيق . لم تعد هناك أحلام لا حدود لها المحيطات ، تشع بالخيال والجمال . لم تعد هناك أمال مرتعشة كتلك التى كانت فى السنوات ١٨٤٨ ، ١٨٩٥ . لم يعد هناك تسابقا كريما ، ولا اعلانا لأفكار البشر من أجل الاتحاد لهدف مشترك . لم تعد هناك تفاهمات أو اتفاقات ضمنية أو صريحة بين الجمهوريين والملكيين ، أو بين الكاثوليك والمفكرين الأحرار ، أو بين الوزراء والثوار ، أو حتى بين الملك والمتآمرون ، حيث تتشابه مواقف الجميع من حيث خضوعهم لسيطرة مشاعر التضحية من أجل هدف وطنى يشكل مصدرا لالهامهم) [٩٥] .

فقد انتهت الآن الصحوة والاثارة الوطنية . وأصبح على الإيطاليين أن يكيفوا أنفسهم ومتطلبات الحياة السياسية العادية ... فتوحيد إيطاليا وهو الهدف الذى سعت اليه أجيال ايطالية وطنية عديدة أصبح الآن حقيقة مؤكدة [٩٦] . وحسبما تؤكد الحقائق السوسيولوجية فان غياب التهديد الخارجى ، قد يدفع فى ظروف معينة الى ظهور الانشقاقات الداخلية ، وعادة ماتكون نطاق الانشقاق هى مواطن الضعف فى البناء الاجتماعى ، وهى هنا الحد الفاصل بين الشمال والجنوب .

٢ - أنه منذ أصبحت الوحدة الإيطالية حقيقة مؤكدة ، أصبح واضحا أنه تحت سطح هذ الاتحاد الادارى توجد اختلافات عميقة وهائلة بين الشمال والجنوب . فالشمال - سواء فى بيد مونت Piedmont فى ظل حكم عائلة سافوى Savoy أو لمباردو فينيتا Lom-bardo Venetia فى ظل الادارة النمساوية كان متطورا اقتصاديا ، ومدارا بصورة جيدة ، وعلى طريق التحديث الاقتصادى والسياسى . غير أن الأحوال كانت مختلفة تماما فى الجنوب . فقد كان الجنوب على هامش الحضارة الأوربية الحديثة . فقد تم استغلال معظم الجنوب ، وبخاصة مملكة صقلية والولايات البابوية بقسوة من قبل الحكام . وكان الشعب يعيش فى حالة فقر وانحلال لايوصف . فقد كان الجنوب الى حد ما زراعيا ، والى حد كبير كان الفلاحين الجنوبيين أميين . ففى سنة ١٩١٨ تراوحت نسبة الأمية بين ٥٠٪ ، ٧٠٪ وذلك فى مقابل ١١٪ كنسبة للأمية فى مقاطعة بيد مونت

اذا فبرغم الاتحاد الظاهرى ، فان الشمال والجنوب شكلا أمتين متباينتين من الناحية البنائية كل منها غريب على الآخر .

وقد حاولت جماعات اليمين التى كان عليها أن تقود إيطاليا عدة سنوات بعد التوحيد أن تؤسس سياسة يمكن تسميتها بسياسة تطوير إيطاليا على غرار بيد مونت Piedmontization of Italy . فقد رغب اليمين أن يفرض على كل المجتمع سياسة تنومية محددة نجحت فى الشمال ، ورأى أن يكون من شأن هذه السياسة أن تفرض استمرار الفكر الليبرالى لكافور Cavour الذى حول بيد مونت الى ولاية حديثة وذات حكم جيد وقوى . ولذلك فرض اليمين ضرائب ثقيلة على المواطنين وأسس بناء اداريا مركزيا ، وشجعت الحرية التجارية ، وظهر هناك سعى لتأسيس توازن فى الميزانية ، وسعى الجناح اليمين الى ابتاع سياسة خارجية تتسم بالحذر ، وقد تشكلت الحكومة التى قادت التطور فى هذا الاطار من صفوة متنورة تضم مجموعة من المتخصصين ذوى الامكانيات العقلية العالية ، والذين ينتمون الى الطبقة الوسطى ، هذه الصفوة كانت تضم أشخاصا ينتمون الى توسكا ، لمباردو أساسا ، وقد كانت بطبيعتها صفوة من الصعب أن تخفى ادانتها لتخلف الجنوب (٩٧) . وقد كان من الطبيعى أن تقود السياسات التى حاولت الصفوة الليبرالية انجازها الى تخلق توترات ورفض فى مقاطعات الجنوب ، هذه التوترات كان من الممكن أن تشكل مناخا ملائما لآية صفوات أخرى تحاول قيادة الجنوب نحو وضع يتمكن فيه من اشباع احتياجاته الاجتماعية والثقافية ، ونقيضا لمطلبات الصفوة السابقة من أجل التحديث .

٣ – شكل حكم اليسار لإيطاليا بعد التوحيد أحد المشكلات البنائية فيما بعد التوحيد . ففى مارس ١٨٧٦ كان على حكم اليمين أن يواجه نهايته بعد هزيمة السياسية فى البرلمان . ومن ثم بدأ ديبريتس ، الزعيم اليسارى ، تنظمي ادارة يسارية تامة . ولكى يؤمن سيطرة اليسار على السلطة ، أجرى انتخابات جديدة . وبرغم انخفاض المعايير الإيطالية فى مثل هذه الموضوعات فقد اشتهرت هذه الانتخابات بالتهديدات الحكومية والممارسات الفاسدة . حيث هدد حكام الأقاليم وتم ارهابهم أو رشوتهم لكى يصبحوا مساعدين للحكومة فى الانتخابات . وقد وعدت المقاطعات الموالية للحكومة بالخدمات الكثيرة كمكاتب البريد ، والمدارس ، وبعض المرافق العامة . أما المقاطعات غير الموالية ، فقد هددت بخفض الخدمات القائمة لديها ، اذا هى لم تسع الى مناصرة سياسات الحكومة

. ونتيجة لذلك حقق اليسار كل النتائج التى كان يرغبها ، حيث حصل على نحو ٤٠٨ مقعدا من مقاعد البرلمان فى مقابل تسعين مقعدا حصل عليها اليمين .

ولايمكن أن ننسب نجاح اليسار الى الفساد السياسى فقط ، ولكن كان هناك ظرف تخلق نتيجة لسياسات اليمين التى فرضت المعاناة ، فقد ظهر تعب عام من مثالية اليمين المجردة ، وأيضا من سياساته وتنظيماته الصارمة . حيث احتاج دافعوا الضرائب الى اجراء اصلاحات من أجل الضرائب الثقيلة التى كان من الصعب تحملها ، هذا الى جانب أنه ظهرت هناك حاجة الى نوع من الأمن العام . وقد احتاج البشر فى الجنوب – والذين صوت غالبيتهم لصالح اليسار – الى المساعدة التنموية بالنسبة للجنوبيين وساد اعتقاد عند كل شخص بأن حكم اليسار سوف يجلب معه الرخاء والتقدم (٩٨) .

غير أنه واضحا أن حكم اليسار ، على العكس من ذلك تماما ، مماثل لحكم اليمين ، وليس أفضل منه . فالفساد أصبح منتشرا الآن فى كل مكان حتى أضحى فنا له تقاليده ووسائله . وقد كان ديبريتس ومن جاء بعده غارقين فى التحكم فى وسائل القوة ، غير أنهم كانوا عاجزين تماما عن تأسيس مجموعة من الاطلاحات تدعو الحاجة الماسة اليها . وقد وعدت الحكومة باصلاحات كبرة غير أنها لم تنجز سوي القليل . بل ان بناء الحزب أصبح ضعيفا ، وانشق عليه كثير من السياسيين فى البرلمان ، وساوموا الحزب على اعلان قوتهم السياسية وتجاوزه . ولم يجد اليسار أية اعتراضات لتوسيع عدد الناخبين . ومن ثم فقد وسعت قاعدة المنتخبين ليضم نحو٧٪ من السكان فى ١٨٨٢ . غير أن توسيع حق الانتخاب كان من الصعب أن يعنى مزيدا من المشاركة الشعبية فى الحكومة . ولكن كان يعنى فقط مزيدا من التحكم ، وأيضا مزيدا من المساوات السياسية الفاسدة . وكنتيجة لذلك ظهرت حالة من عدم الثقة التقليدية فى الدولة ، وبخاصة من قبل سكان الجنوب ، وتزايد هذا الاحساس مع الزمن وتراكم الفساد . وبدأ معظم السكان ينظرون الى الدولة باعتبارها جهازا هائلا يمتص ثروات البشر من خلال فرض الضرائب المتزايدة التى تنساب فى خزائن الصفوة الفاسدة .

٤ – ويعتبر فرض النظام العام ولو بالقهر هو المجال الوحيد التى نجحت فى اطاره الحكومات المتعاقبة . فحينما ثارت اضطرابات الفلاحين فى ١٨٩٤ غى صقلية ، تولى كويسبى القضاء عليها بلا رحمة بمساعدة العكسريين . وفى السنة التالية صدرت القوانين التى قضت على التنظيمات الاشتراكية والفوضوية . والتى قضت أيضا على

حرية الاجتماع والتعبير . وحينما انفجرت اضطرابات الخبز فى عام ١٨٩٨ فى أجزاء عديدة من المجتمع ، ووصلت الى حد الصراع الصريح فى ميلانو فى شهر مايو من نفس العام ، أصدر الحاكم الذى خلف كريسبى القانون المدنى ، والذى قتل نتيجة لتطبيق أحكامه ٤٠٠ شخص وجرح أكثر من ذلك قبل أن تستعاد الأوضاع العادية . وفى هذه المرحلة صدرت أحكام قاسية من المحكمة المدنية ، خاصة ضد الاشتراكيين . بحيث دفعت الكثير منهم الى الفرار الى سويسرا أو أية أمكنة أخرى يمكن اللجوء اليها [٩٩] .

٥ - وتعتبر الفضائح المالية التى وقعت خلال هذه المرحلة من الموشرات التى شهدت على حالة من الانهيار البنائى . ففى ١٨٩٤ مرت إيطاليا بأزمة اقتصادية أقدم بسببها جوالتى Giolitti مدير بنك روما على تعيين تانلونجو Taniongo سيناتور ، غير أن مجلس الشيوخ رفض هذا التعيين وقام ببحث فى أحوال تانلونجو وعدد آخر من السياسيين المرموقين والشخصيات العامة كشف أن تانلونجو قد أصدر مبلغا مزدوجا من أوراق البنكنوت . وكان الوزراء السابقون على وعى بذلك ، بحيث دفعت هذه الأوضاع البعض الى الشعور بالأسى . وفى ظل حكمه تم توسيع حق الانتخاب . ولكن ككل التعديلات الانتخابية السابقة ، لم يكن ذلك يعنى أية زيادة حقيقية فى المشاركة ، ولكنه كان يعنى فرصة لجوالتى لكى يمارس مهاراته فى لعبة الانتخابات هذه .

٦ - يضاف على ذلك تردى الظروف الاجتماعية والاقتصادية فى ايطاليا خلال هذه المرحلة . فبرغم الفساد وسوء الحكم ، حققت إيطاليا انجازات اقتصادية فى نصف قرن قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى . فقد طورت صناعة قوية للنسيج . وبدأت ميلانو تحل محل ليون باعتبارها مركزا لنسج الحرير . وحلت ميناء جنوا تدريجيا محل مرسيليا . وتأسست شبكة من الخطوط الجديدة اتسعت حتى غطت ايطاليا . غير أننا اذا نظرنا اليها من خلال النمو الصناعى الشامل لأوربا ، فاننا نجد أن إيطاليا ظلت مختلفة بالمقارنة . فمثلا بلغ متوسط نصيب الفرد من لدخل القومى فى التسعينات نحو ٤٠ دولار ، فى حين بلغ هذا المتوسط بالنسبة لبريطانيا نجو ١٥٥ دولار ، وفرنسا نجو ١٣٠ دولار . وقد بلغت صادرات ايطاليا فى مطلع القرن أقل كثيرا من صادرات بلجيكا . وبرغم كل الحديث عن التنمية ، فان الفجوة بين الشمال والجنوب استمرت فى الاتساع اذ استمر الفلاحون يعيشون فى مناطق الجنوب فى حالة من البؤس الكامل . وقد تأجل الاصلاح الزراعى وهو الاجراء الذى كان الجنوب يحتاجه مرة تلو اخرى ، وذلك لأنه لم

يكن هناك أحد من السياسيين يجرؤ على مهاجمة اميتازات سادة الأرض الذين كانت لهم السيطرة السياسية والاقتصادية فى المناذق الزراعية ، فكيف يمكن أن ينجحوا فى الانتخابات بدون أن يدافعوا عن مصالح سادة الأرض ؟ . ويرتبط بذلك أنه صدر قانون التعليم الالزامى الاجبارى فى ١٨٧٧ ولكن نادرا مانفذ هذا الالزام . وقد قدر البرلمان التكاليف المطلوبة غير أن خوف كبار الملاك من إفتقاد قوة العمل الرخيصة بسبب التعليم الالزامى للأطفال القادرين على العمل ، هذا الى جانب خوف البرلمان من الناخب المتعلم الذى قد يصعب عليه أن يوافق على الأساليب العتيقة للسيطرة والتحكم فى الانتخابات . كل ذلك دفع الى عدم تنفيذ التعليم الالزامى . وان كان قد بذل جهد خلال هذه المرحلة لتحسين نظام الضرائب القاسى وغير العادل ، الذى كان يعمل على دعم الجهاز الادراى لإيطاليا ، وهو الجهاز الذى أصابه الغرور – من فرط قوة تحكمه – خلال هذه المرحلة (١٠٠) .

٧ – الى جانب ذلك غياب نظام قيمى متماسك يضم كلا من الشكال والجنوب فى وحدة واحدة ، هذا الى جانب غياب مجموعة القيم الأساسية التى تضم مجموعة الطبقات فى اصار حالة من الوحدة الثقافية والاجتماعية . هذا الى جانب أن غياب هذه الوحدة الثقافية عادة مايجعل السلوكيات الواقعية خالية من التوجه بأية مثاليات قيمية فعالة . فنترة الصراع السابق الذى قاد الى الوحدة الإيطالية كان من المنطقى أن تتواجد فى ظل بناء قيمى متماسك يوجه النضال ويقوده . وهو البناء القيمى الذى لم يعد موجودا فى الفترة اللاحقة على توحيد إيطاليا . ومن ثم تراجع التفاعل الاجتماعى عن السعى وراء تحقيق أهداف أو مصالح عامة الى محاولة تحقيق مصالح فردية ، وهو المناخ الذى ازدهر فى اطاره الفساد الى حد كبير .

٨ – بالاضافة الى ماسبق هناك عامل خارجى تعرض له المجتمع الإيطالى ، فعمق لديه مشكلة النظام الاجتماعى . إذ حاول بعض حكام ايطاليا خلال هذه المرحلة الدخول فى صراعات خارجية علها تؤسس الوحدة الداخلية للمجتمع الايطالى . فمثلا حاول كريسبى لكى يتجنب ضغوط التوترات المحلية أن يتبع سياسة استعمارية ذات طبيعة توسعية فى العالم الخارجى . وقد قاد ذلك الى الدخول فى حرب مهلكة مع أثيوبيا ، وهى الحرب التى أوصلتها الى معركة أدوء Adua ، حيث هزم نحو ٢٥ . ٠٠٠ ايطاليا مسلحا تسليحا حديثا بواسطة ١٠٠ . ٠٠٠ أثيوبى مسلحين تسليحا بدائيا تحت قيادة مينيليك Mene-

leg ، ثم الوصول الى معاهدة أديس أبابا حيث سلمت ايطاليا فى اطارها ، باستقلال أثيوبيا ، وانسحبت الى مستعمرة اريتريا Eritrea الصغيرة . ذلك يعنى أن المخططات الاستعمارية لايطاليا واجهت نفس التفاعلات التى من شأنها أن تعمق اشكالية النظام الاجتماعى وتزيد من انهياره .

أما المجموعة الثانية من المشكلات فهى ذات طابع تحليلى ، وهى تختلف عن مجموعة المشكلات التاريخية فى أنه ليس لها وجود واقعى داخل الزمان والمكان ، وان كان لها وجودها فى الطبيعة الأساسية للفرد أو المجتمع ، ومن ثم فعادة مايكون لها آثاره الاجتماعية والبنائية .

١ – وتتعلق الحقيقة التحليلية الأولى بطبيعة تصور الفكر الايطالى – بما فيه الأفكار الباريتوية – للطبيعة الانسانية . فالقليل من افكر الايطالى هو الذى حاول تناول سلوك الانسان بالنظر الى القوى الاجتماعية الموضوعية . وباستثناء الفيلسوف والمشرع جيوفانى فيكو Glovanni Vico نجد أن الفكر الايطالى لم يتصور الى حد كبير فكرة المجتمع كحقيقج موضوعية له قوانينه الخاصة به . وتتمثل نقطة بدء الفكر الايطالى الاجتماعى منذ ميكيافيلى فى تصور الانسان غير المنشأ اجتماعيا والذي يتارك فى نسيج العلاقات الاجتماعية ومن خلال هذه المشاركة تتولى النظم الاجتماعية تطبيعه وتشكيله ، هذا بالاضافة الى أخذ العناصر الأساسية المشكلة لطبيعته فى الاعتبار . ويشعر المفكرون الايطاليون بأن البشر لديهم بعض الخصائص الثابتة وأن على المفكر الاجتماعى أن يهتم أساسا بتوضيح وفحص الطبيعة الانسانية وذلك لكى يتعرف على أسلوب تأثيرها فى السلوك الاجتماعى فى ظل ظروف اجتماعية مختلفة . فقد أكد ميكيافيلى فى كتابه الأمير The Prince أن البشر كائنات عاقة Ungrateful ، وأنهم متقلبون Fickle كذابون Lying ، منافقون Hypocritical ، جبناء وشرهون . ومن ثم ينبغى أن يأخذ المنظرون الاجتماعيون هذه السمات البشرية فى الاعتبار . مثلما ينبغى أن يكون المهندس على وعى بالمواد التى يحاول بها بناء قنطرة . فالمعرفة الرشيدة – بالنسبة لميكيافيلى ومن جاء بعده – لاتسعى من أجل اكتشاف القوانين الاجتمعية التى تنظم الاستقرار والتغير ، وانما ينبغى أن تهدف أساسا الى تحليل طبيعة المادة التى تدخل فى بناء الكل الاجتماعى . وفضلا عن ذلك . فينبغى أن لا ننظر الى النظام الاجتماعى باعتباره يظهر تلقائيا كنتيجة لفاعلية القوانين داخل الكيان الاجتماعى . ذلك يعنى أن السلطة الى قد يمتلكها بعض البشر على آخرين ، أو قدرة بعض البشر على

فرض ارادتهم على الآخرين ، تعتبر عنصرا أساسيا فى الفكر الايطالى الاجتماعى ابتداء من ميكيافيلى وحتى باريتو .

ذلك يعنى أن ادراك باريتو - والفكر الايطالى - للطبيعة الانسانية يعتبر ادراكا مشكلا ، يسير حسب ذات خطوط الفكر النفعى . ومن ثم فهو يؤسس بذلك برهنة منطقية تؤكد على ضرورة قيام نظام اجتماعى يتكامل وهذه الطبيعة البشرية . وهو فى ذلك يعكس أفكارا قريبة للغاية من الأفكار التى طرحها توماس هوبز فيما يتعلق بالطبيعة البشرية .

غير أنه فيما يتعلق بالنظام الاجتماعى والسياسى فاننا نجد أن الفكر الايطالى يصوغ مفارقة هامة عجز عنها الفكر النفعى على يد توماس هوبز ، وهى المفارقة بين الدولة والمجتمع . حيث كان الفكر الايطالى مهتم أساسا بالدولة وليس المجتمع . اذ أصبح ينظر الى النظام الاجتماعى باعتباره ملحقا بالدولة ، أو باعتباره المجال الذى يناضل فيه الأفراد والمجموعات من أجل السيطرة وتملك سلطة الدولة . فالقائم بالتحليل الاجتماعى من وجهة نظر التفكير الميكيافيلى ينبغى أن يمارس نوعا من التحليل الشكى الدقيق بهدف التعمق فى الجذور العميقة للطبيعة البشرية . فاذا امتلك الباحث هذه المقدرة فانه سوف يكون بامكانه اقتراح الأساليب التى يمكن أن يتعلم بواسطتها الأفراد الأقوياء ذوى القدرات الاستثنائية كيفية الاستفادة من جهود البشر فى بناء جهاز الدولة القوى ، وهو الجهاز الذى سوف يكون بامكانه السيطرة على الاستعدادات الفردية الصارمة التراث . وهو مايعنى أن التكامل الاجتماعى يتم فرضه من الخارج بواسطة أمير أو بواسطة صفوة طبقية Class - Scelta . فهى التى يكون فى مقدورها تأسيس البناء الاجتماعى حسب قواعد تتطابق ومعرفتها الاميبريقية بالطبيعة البشرية ، وأيضا عن طريق فرض ارادتها على الجماهير المتمردة (١٠٢) .

٣ - وتتصل الحقيقة التحليلية الثالثة بطبيعة التغيرات التى تطرأ على بناد استعدادات أو اهتمامات الصفوة . حيث يرى أن الخطر يحدث حينما تكون المراكز التى ينبغى أن يحتلها بشر لديهم امكانيات حقيقية ، محتله بواسطة أفراد لايمتلكون أيا من هذه الملكات (ففى البداية تعتبر الارستقراطيات العسكرية والدينية والتجارية أجزاء مكونة للصفوة الحكمة ، بل أنها قد تشكل كل كيان الصفوة فى بعض الأحيان . حيث يعتبر المحارب المنتصر ، والتاجر الثرى ، وصاحب النفوذ بشرا يشكلون هذا العناصر . فذلك هو

مجالهم الذى يسمو أو يتجاوز الانسان العادى) . وفى اطار هذه الظروف فان كلمة الصفوة تتصل عادة بالقدرة الحقيقية . ولكن مع مرور الزمن تحدث مفارقة بين القدرة ، وبين مفهوم (الصفوة) ذاته ، فالارستقراطية لاتدوم . ذلك أن التاريخ هو مقبرة الطبقات أو الصفوات الأرستقراطية . ولايحدث الانهيار فى العدد فقط ، ولكنه يحدث فى الكيف أيضا . وذلك بالمعنى الذى تكون فيه الصفوة قد فقدت عناصرها الجوهرية . وهو مايعنى أن هناك انهيار فى معدلات الرواسب التى تمكنها من كسب قوتها والتمسك بها . غير أنه يمكن للطبقة الحاكمة أن تستعيد أوضاعها من حيث العدد ، أو من حيث الكيف . ذلك عن طريق تعويض نفسها من الأسر التى ترتفع اليها من الطبقات الدنيا ، وأثناء صعودهم فإنهم يأخذون معهم نسبة من الرواسب الضرورية التى تساعدهم على الاحتفاظ بالسلطة . ويعتبر تراكم العناصر أو الرواسب المتفوقة فى الطبقات الدنيا ، أو تراكم العناصر أو الرواسب المتدنية فى الطبقات العليا أحد الأسباب الرئيسية وراء اهتزاز التوازن فى المجتمع (١٠٣) .

وحينما تحاول الصفوات الحاكمة أو غير الحاكمة الاقتراب من تدفق العناصر الجديدة والأكثر قدرة من البشر المكونين للمجتمع ، أو حينما تعاق درة الصفوات فان التوازن الاجتماعى يهتز وينهار النظام الاجتماعى . ويؤكد باريتو أنه اذا لم تعثر الصفوة الحاكمة على الأساليب التى تستوعب بواسطتها الأفراد ذوى القدرات الاستثنائية الذين يحتلوا مقدمة الطبقات المحكومة فان نوعا من عدم الاتزان الذى يخلق فى الكيان السياسى والاجتماعى يحدث اذا لم تصحح الشروط أو الظروف ، أما من خلال فتح قنوات جديدة للحراك أو من خلال الاطاحة بالصفوة الحاكمة والمؤثرة بواسطة صفوة جديدة قادرة على الحكم والسيطرة (١٠٤) .

٤ - ذلك ينقلنا الى قضية القوة Power باعتبارها قضية تحليلية تحتل مكانة هامة فى نظرية باريتو . فمنذ البداية تجد أن باريتو يركز كثيرا على عدم تلاؤم المصالح بين البشر فى المجتمع . وفى هذا الصدد نجده يقدر كثيرا موقف كارل ماركس باعتباره قد ركز على هذا العامل فى بنائه النظرى . ذلك يعنى أن باريتو أكد كثيرا على دور القوة والاغتيال فى الحياة الاجتماعية . وهو رأى يشارك فيه كلا من ميكيافيلى وهوبز . وهى الآراء التى تختلف بالتأكيد عن وجهة نظر الفرد مارشال فى هذا الصدد (١٠٥) .

ويحاول باريتو أن يعرض تحليليا لسياق استخدام القوة فى المجتمع فيؤكد أنه فى

أى مجتمع ينبغى أن يوجد ميكانيزما معينا يتم بالنظر اليه الفصل فى الادعاءات المتباينة للأفراد فى سعيهم الى السيطرة على الموارد غير البشرية المحدودة . وهناك طريقين بديلين للعملية التى يمكن أن يحدث بها تكييف هذه الادعاءات المتباينة ، فانا أن يحدث اتفاق كنتيجة لأن كل فريق يحاول تحقيق أهدافه فى ظل الظروف القائمة ، أو أنه قد يفرض مبدأ ما من خارج العملية التنافسية ذاتها ، والذى يكون من نتيجة الوصول الى موقف مستقر نسبيا . غير أن هؤلاء الذين قد يؤيدون الحل الأول قد يواجهون مشكلة أن هذا الحل لايوضح التحديد الذى قد يفرض على الوسائل التى يستخدمها فرد أو جماعة بهدف احكام سيطرتها على المصادر على حساب الادعاءات التى قد يطرحها أفراد أو جماعات أخرى . حيث أنه فى حالة غياب مثل هذا التحديد فانه لايكون ثمة عائق أمام الاستخدام الشامل من قبل كل طبقة للوسائل التى يمكن أن تكون ذات فعالية قهرية .

والى المدى الذى يسيطر فيه فرد أو جماعة على عناصر الموقف الذى يسلك فيه الآخر ، بالقدر الذى يؤثر فيه على تحقيق هذا الآخر لأهدافه . فانه يكون بامكانه استخدام هذه السيطرة كطريقة للتأثير على موقف هذا الآخر . على سبيل المثال أن يهدد بتغير طبيعة الموقف ، بما لايساعد الآخر على تحقيق أهدافه . وهو بذلك يجعل من المفيد بالنسبة للآخر أن يفعل مايريد ، وذلك لكى يتجنب التغيرات التى تهدد تحقيقه لأهدافه . وقد اتضح فى الأدب الكلاسيكى لهوبز ان هذا الاستخدام المحدد للقهر قد يؤدى الى الصراع الصريح الذى قد يدفع فى حالة غياب القوى ذات الطبيعة القهرية الى انحدار المجتمع الى حالة (حرب الكل ضد الكل) أعنى حكم القوة والاغتيال . وعلى هذا الأساس ، فطالما ان غايات الفعل أو السلوك هى عوامل ذات طبيعة واقعية فانه ينبغى أن تكون هناك سيطرة ما على ممارسة البعض للقوة القهرية على الآخرين اذا كان من الضرورى أن يكون هناك نظاما اجتماعيا (١٠٦) .

بالنظر الى هذا الموقف يضع باريتو حلا لمسألة استخدام القوة لترسيخ النظام الاجتماعى . فهو يؤكد أنه اذا كان هناك مجتمعا تصبح فيه الطبقة الحاكمة (أ) – لاعتبارات انسانية أو أية اعتبارات أخرى – عاجزة أو غير قادرة على استخدام القوة ، فانها فى هذه الحالة تهرب من واجبها كطبقة حاكمة . ويكون المجتمع فى هذه الحالة على طريق انهياره حينئذ فاننا نجد أن الطبقة المحكومة (ب) تحاول تطبيق

استخدام القوة على أوسع مدى ممكن . ولتحقيق ذلك فهى لاتطيح فقط بالطبقة الحاكمة ، ولكنها تقتل عددا كبيرا من أعضاءها . فاذا فعلت ذلك ، فانها بذلك تؤدى خدمة اجتماعية وانسانية عامة ، أشبه ماتكون بتخليص المجتمع من نفايات حيوانية . وبسبب ذلك فان النسيج الاجتماعى يكتسب استقرارا وقوة ، ويتم انقاذ المجتمع من الدمار ، أو يعاد ولادته من أجل حياة جديدة . ومرة أخرى يعتبر الاغتيال والنهب مؤشرات خارجية على قدوم بشر أقوياء وشجعان الى الأماكن التى كان يحتلها فيما مضى الضعفاء غير الأقوياء .

وفى تعليقه على الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ نجده يذهب الى أنه لو توفر لدى الطبقة الحاكمة ايمان يشير عليها باستخدام القوة أو ارادة استخدام القوة ، فانه كان من المستحيل الاطاحة بها . أى أنه اذا تمكنت الطبقة الحاكمة من الحفاظ على امتيازها ، فانها تكون قد تمكنت من الحفاظ على فرنسا . ومع ذلك ، فبسبب فشلها فى أداء وظيفتها فانه من الأفضل أن تتخلى عن السلطة التى قد يدها الى أشخاص لديهم امكانية اللجوء الى استخدام القوة (١٠٧) .

ذلك يعنى أن النظام الاجتماعى لدى فلفريدو باريتو يعانى من مشكلة بنائية لها عواملها التاريخية والتحليلية ، وهى العوامل التى نوجزها فيما يلى :

١ – فبالنسبة للعوامل التاريخية نجد العوامل التالية :

(أ) هناك الانقسام البنائى بين الشمال والجنوب ، فبرغم التوحيد السياسى مازال هناك نظاما اجتماعيا متباينا أو لايسوده التجانس .

(ب) ضعف الصفوة الحاكمة ، سواء صفوة اليمين أو اليسار . الأولى فرضت انعاناه فى مواجهة التخلف ، والثانية غرست الفساد طلبا لأحلام التقدم .

(ج) أن النظام الاجتماعى من الضعف بحيث نجد أن الأحداث الخارجية عمقت ضعفه وانهياره (الحرب مع أثيوبيا) ولم تدعم تماسكه على ماتؤكد القوانين السوسيولوجية .

(د) انتشار الفساد الاقتصادى والاجتماعى كنتيجة لغياب التوجيه الأيديولوجى والثقافى الملائم ، بسبب عدم صلاحية أيديولوجيا وقيم ماقبل التوحيد ، أو عدم صلاحيتها لقيادة تفاعلات مابعد التوحيد .

٢ – هذه المشكلة لها أيضا الأسباب التحليلية التالية :

(أ) أولها . الطبيعة البشرية الشريرة للانسان الفرد مما يفرض استخدام القوة لفرض اتباع السلوك الاجتماعى الذى ينبغى أن يكون .

(ب) ضعف رواسب القوة والسيطرة عند الصفوة الحاكمة ، مما قد يفرض تجاوزها بصفوة أخرى تمتلك رواسب قوية للسيطرة والضبط .

(ج) أن هناك تناقض فى مصالح الجماعات وأن الطريقة لحل هذا التناقض يكون من خلال حل مفروض من الخارج بواسطة صفوة قوية ، تدافع عن مصالحها باعتبارها مصالح المجتمع .

بذلك نجد أن فلفريدو باريتو وان أكد على وجود مشكلة يعانيها النظام الاجتماعى الذى يفتقد الى الاستقرار والتوازن ، فانه يرى أن الحل الوحيد لفرض النظام والتوازن يتمثل فى أن تتولى السيطرة على المجتمع صفوة قوية تفرض الاستقرار بالقوة ، وتكتسب شرعيتها السياسية والاجتماعية ، ليس من المجتمع أو المصلحة الاجتماعية ولكن من خلال قوتها وامكانياتها على استخدام القوة لقهر الأخرين واخضاعهم .

ثانيا : الرواسب ، كقوى دافعة للاستقرار والتغير .

اذا اتفقنا على أن ثمة مشكلة للنظام الاجتماعى كما عرضنا فى الفقرة السابقة ، فانه من المنطقى أن يحدد باريتو المتغيرات الأساسية التى تتحكم فى التفاعل الاجتماعى . ومن ثم فأى اعاقة لهذه المتغيرات يعنى تخليقا لمشكلة نظامية ، وأن اباحة المجال لفاعليتها يعنى انتفاء امكانية قيام مشكلة نظامية أساسا .

ومثلما ذهب كارل ماركس الى التأكيد على وسائل الانتاج أو البناء التحتى باعتباره المتغير الحاكم للتفاعل الاجتماعى . أو مثلما ذهب فيبر الى التأكيد على القيم البروتستنتية باعتبارها المبدأ الذى يستند اليه قيام النظام الاجتماعى ، أو حسبما يذهب دوركيم الى القول بأن تقسيم العمل الاجتماعى هو مصدر مشكلة النظام الاجتماعى وهو طريق حلها أيضا ، فاننا نجد أن باريتو يرى أن الرواسب هى المبادئ الأساسية أو المتغيرات الحاكمة للتفاعل فى اطار النظام الاجتماعى .

فما هى اذا الرواسب التى تشكل المبادئ الأساسية الكامنة وراء وجود المجتمع وجودا منظما مستمرا .فى هذا الصدد نجد أن هناك من يؤكد أن الرواسب ليست سوى تجليات

للعواطف أو على الأقل لها ارتباط بها ، غير أنها بالتأكيد لا تشكل نظائر لهذه العواطف . وعلى هذا النحو تعتبر الرواسب متغيرات وسيطة بين العواطف التى لا تستطيع التعرف عليها بصورة مباشرة من ناحية ، وبين أنساق المعتقدات والأفعال التى نعرفها ونستطيع تحليلها من ناحية أخرى . وفضلا عن ذلك تتصل الرواسب بغرائز الانسان غير أنها لاتتصل بكل غرائزه ، طالما أنه بامكاننا أن نكشف تلك الغرائز التى يمكن صياغتها عقليا فى شكل نظريات ، بينما أخرى تظل كامنة (١٠٨) .

ويحاول بيترم سروكن تقديم شرح لطبيعة هذه الرواسب فيؤكد أن الأفعال الانسانية عادة ماتعتمد على طبيعة دوافعها . ومن بين هذه الدوافع ، هناك بعد الدوافع التى لها أهميتها الخاصة ، وهى الدوافع التى تتميز بالدوام النسبى ، هذه الدوافع هى الرواسب Residues . والرواسب عند باريتو ليست غرائز ، وليست عواطف أيضا ، انها نوع من الدوافع الدائمة نسبيا ، تلك التى توجد بين أعضاء المجتمع ، بغض النظر عن مسألة نسبية دوامها للغرائز أو لأى شئ آخر . اذ تتصل الرواسب بما يسميه البورت ستايلز Allport Styles (ردود الفعل اللاارادية القوية Pre potent reflexes) أو مايسميه بتراجسكى Petrajitzky المشاعر emo-tions أو مايسميه علماء النفس (بالمركبات أو العقد Complexos) كمركب أو عقدة النقص . أو مايسميه لوويل A. L. Lowell بالاستعدادات أو الاهتمامات dispositions . غير أنه فى التحليل النهائى نجد أن الرواسب تستند الى الغرائز ، بيد أنها على النقيض منها ، اذ تتميز تجلياتها بأنها ليست صارمة . وهى تختلف الى حد كبير حتى أنها قد تتخذ أشكالا متباينة الى حد التناقض . فمثلا نجد أن الرواسب الجنسى على العكس من الغريزة الجنسية قد يتجلى ليس فقط فى أفعال الجماع الجنسى Copulation (وهو الشكل الملائم للاشباع ، أو التجلى المعتاد للغريزة الجنسية) . ولكن التجلى بالنسبة للراسب الجنسى قد يتخذ شكل التقشف الجنسى أو تشويه وبتر Mutilation الأعضاء الجنسية أو الادانة المتقشفة للشهوة الجنسية أو الحياة الجنسية كلها . ونفس الشئ يمكن أن يقال فيما يتعلق بالرواسب الأخرى فى علاقتها بالغرائز ، اذ تعتبر الرواسب تجليا للغرائز والعواطف ، وهى فى ذلك تناظر ارتفاع الزئبق فى الترمومتر كتجلى لارتفاع درجة الحرارة (١٠٩) . ذلك يعنى أن الرواسب تعتبر تجليا للعواطف Sentiments ، باعتبارها القوى التى تحدد طبيعة التوازن الاجتماعى (١١٠) . ذلك يعنى أن الرواسب هى مجموعة من المبادئ العامة ذات الأساس البيلوجى داخل الكائن الانسانى ، لكنها تتجلى فى شكل سلوكيات اجتماعية محددة تصنع فى مجموعها الوجود الانسانى والاجتماعى

برمته . فقد يشارك الانسان الحيوان فى الأساس البيولوجى للرواسب ، لكنه يختلف عنه فى قدرة الرواسب فى اطار العالم الانسانى على أن تتخذ تجليات متباينة ومتنوعة .

ذلك يفرض علينا ضرورة أن نحدد طبيعة هذه الرواسب كما رآها باريتو ، حيث نجد من خلال قراءة أفكاره أنها تتصف بعدة خصائص رئيسية نذكر بعضا منها فيما يلى :

(أ) أول هذه الخصائص أنها تتميز بالثبات النسبى وليس المطلق . وبرغم أنها قد تخضع للتغير مثل المشتقات ، إلا أن معدلات التغير ونطاقه عادة مايكون أكثر بطأ ومحدودية اذا قارناها بالمشتقات التى تعتبر أكثرتغيرا وتنوعا . وفضلا عن ذلك فقد أوضح باريتو أنه برغم اختلاف المشتقات من حيث أشكالها الواقعية بين الأزمنة والشعوب المختلفة ، فاننا نجد أن فئات الرواسب الأساسية التى تتعلق بالأيديولوجيات عادة مايكون لها دوامها النسبى . فمن الملاحظة السطحية نجد أنه ليس هناك اختلاف كبير بين البدائى الذى يؤله معبوده أو مليكه من ناحية ، وبين الاشتراكى المتحمس الذى يعيش فى زماننا الحالى ، فكلاهما لديه راسب التألية (١١١) .

(ب) على عكس المشتقات أيضا نجد أن الرواسب غير متنوعة . ففى الماضى كان راسب الطاعة يكشف عن نفسه فى الخضوع أساسا للملوك أو القساوسة أو النبلاء . أما الآن فقد تم القضاء على هذه الأشكال من الطاعة . غير أن الراسب مازال باقيا ، وأخذ يكشف عن نفسه فى طاعة الزعماء العقائدين أو الخضوع لقادة النقابات أو لرجال الصناعة وما الى ذلك ، فالأشكال قد تختلف أو تتنوع ، لكن الراسب دائم وثابت . فراسب فرض الوحدة أو التآلف على افراد المجتمع قد تجلى فى الماضى من خلال عدم التسامح الدينى أو القضاء على من يهاجم الثروة الخاصة ، وما الى ذلك . أما الآن فنحن نملك قدرا من التسامح فى هذا الصدد ، غير أننا مع ذلك أيضا أصبحنا لا نتسامح فى مواجهة بعض السلوكيات كتعاطى المخدرات ، أو نقد المصلحين أو الذين ينادون بديانات الانسانية أو التقدم . فقد تغيرت المشتقات لكن الرواسب ظلت كما هى (١١٢) .

(ج) أن الرواسب الستة ليست موزعة بالتساوى بين أفراد المجتمع . أو بين مختلف الطبقات الاجتماعية أو الجماعات المختلفة . اذ يوجد الأفراد أو الجماعات التى تمتلك قدرا كبيرا من الرواسب القوية من الفئة الأولى (رواسب الترابط) ، بينما هناك أفراد آخرون أو

جماعات لديهم عددا كبيرا وقويا من رواسب الفئة الثانية (رواسب التجمع) . ويصدق نفس الأمر بالنظر الى فئات الرواسب الأخرى ، وتتضح أهمية ذلك من خلال أن الراسب السائد هو الذى يشكل طبيعة الشخصية الانسانية للفرد أو الجماعة . فهو يطبعهم بطابع خاص ، ويحدد بقدر كبير السلوك الفردى أو طبيعة التنظيم الاجتماعى للجماعة . ويكشف فحص هذه الرواسب الستة ادراك أن أهمها يتمثل فى مجموعة رواسب الفئة الأولى ورواسب الفئة الثانية . واستنادا الى ذلك ميز فيبر بين نموذجين اجتماعيين لشخصية الأفراد ، المضاربون أو الثعالب Speculatore والمحافظون أو الأسود Ren-tiers . حيث ينتمى النموذج الأول لهؤلاء الذين تقوى لديهم رواسب الترابط ، وتضم هذه الفئة كل هؤلاء الذين يشجعون على قيام أية ارتباطات أو ترابطات جديدة Combina-tions ، كالمقاولين، أو المدبرين للمكائد . يعنى ذلك أن هذه الفئة تضم كل الذين يبحثون عن صياغة ترابطات أو تأسيسات جديدة (مالية كالمشروعات ، فكرية كالمخترعات ، أو سياسة كتأسيس التنظيمات ، أو دبلوماسية أو أى تنظيمات من أى نوع غير ذلك) .

أما المحافظين فهم الذين يقوى لديهم راسب استمرار التجمع أو الترابط ، ولهذا السبب فهم من الناحية السيكولوجية يمتلكون نموذج المحافظ . وفى العادة لايهتم هؤلاء بالاختراعات ، والترابطات أو التأسيسات الجديدة ، ولكنهم يحاولون دائما الحفاظ على ماهو قائم أو انقاذه اذا تعرض للخطر تأكيدا لضرورة استمراره . فهم أشخاص لديهما إحساس قوى بالواجب ، ولديهم ارادة حديدية وصارمة ، وهم جادون صارمون فى أفعالهم . ويمكن أن يوجد من بينهم كثير من ذوى الأفق الضيق ، أو القادة الحديديون لأية حركة ، فهم صارمون فى سلوكياتهم ، وهم فى غالب الأحيان خياليون (١١٣) .

(د) أن هناك صلة بين توزع الرواسب من ناحية . وبين دورة الصفوة فى المجتمع من ناحية أخرى . ومن ثم علاقة ذلك بقضية التغير الاجتماعى . اذ تعتبر هذه الرواسب عنصرا أساسيا لتفسير دورة الصفوة فى المجتمع . وفى هذا الصدد يؤكد باريتو أنه ليس فقط أن الذكاء والاستعدادات موزعة بشكل متباين بين أعضاء المجتمع ولكننا نجد أن الرواسب هى الأخرى ليست موزعة بصورة عادلة بين أفراد المجتمع ، ففى ظل الظروف العادية نجد أن رواسب المحافظة من الفئة الثانية هى التى تنتشر بين الجماهير . ومن ثم تخلق لديهم احساسا بالخضوع . ومع ذلك ، فانه لكى تصبح الصفوة الحاكمة مؤثرة ، فانها ينبغى أن تتكون من الأفراد الذين لديهم خليطا قويا من عناصر أو رواسب تنتمى

الى الفئة الأولى وأخرى تنتمى الى الثانية . فانتشار الاهتمامات الصناعية والتجارية يعمل أساسا على اثراء الطبقة الحاكمة بالأذكياء ، والحاسمين الذين يمتلكون قدرا كبيرا من غرائز الترابط ، وهى الغرائز التى تزود المجتمع بأفراد أقوياء . ويستطيع الفرد أن يخمن أنه اذ سيطر على الحكم ، الأفراد المخادعون ، والماكرون والمؤسسون للترابط ، فان سيطرة الطبقة التى يسودها راسب الفئة الأولى سوف تستمر لفترة طويلة . غير أن الحكم يعنى الى جانب ذلك القوة ، وكلما كان الراسب من الفئة الأولى ينمو بقوة أكثر ، فان الراسب من الفئة الثانية يكون أضعف من حيث نموه . وهو ما يعنى أن الأفراد الذين يحتلون السلطة يصبحون فى العادة أقل ميلا لاستخدام القوة وينتج عن ذلك توازنا غير مستقرا . وقد تحدث الثورات لتجاوز هذا الوضع القلق ، اذ تحمل الجماهير التى لديها رواسب الفئة الثانية قوية ، نفسها الى الطبقة الحاكمة ، أما من خلال التسلل التدريجى أو من خلال الانفجار المفاجئ عن طريق الثورات (١١٤) .

(هـ) عادة ماتتشكل الرواسب أساس للمشتقات . فالرواسب هى العناصر الدائمة وراء المشتقات المتغيرة . هذه الرواسب تعرف عادة باعتبارها ثوابت أو دوائم Constants ، ولا يهتم باريتو كثيرا فى تناوله للرواسب اذا كان التعبير عنها يتخذ شكل عبادة الأوثان أو تحية العلم الوطنى ، أو دعما للخلاص الانسانى ، أو تصويتا لصالح الاشتراكية الخ . حيث تعتبر هذه الأشكال كلها مشتقات متنوعة لذات الحالة السيكولوجية غير المتغيرة نسبيا للانسان . فكل هذه الأفعال ، أيا كان الاختلاف الذى تتبدى به تتحرك بنفس القوة الدافعة ، نفس الراسب الثابت والدائم . أما ما يتغير أو يتنوع تاريخيا ، فيتمثل فى التفسيرات explanations ، أو الأسباب reasons أو التبريرات النظرية التى يمكن أن يقدمها البشر لأفعالهم . غير أن هذه المشتقات Derivations كما يسميها باريتو (على الأقل باعتبارها من وجهة نظره مشتقة عن العواطف) ينبغى أن ينظر اليها فى ظل كل الظروف باعتبارها نتائج أو آثار العاطفة ، أو هى السبب النهائى لكل من الأفعال غير المنطقية والتفسيرات غير المنطقية . ويعتبر كل من العقل (الراسب) أو التعبير اللغوى المقدم لتبريره (المشتقات) غير قابلة للملاحظة . غير أن كليهما يعتبر تجليا لقوة دائمة غير ملحوظة تسمى بالعاطفة . بيد أننا نجد أن باريتو لم يوضح لنا كيف يمكن لهذه الرواسب أو (الثوابت) أن تحدد أفعالنا العديدة ، ووفقا لأى منطق يمكن للرواسب أن تحدد الأفعال والمشتقات (١١٥) .

ويوضح سروكن ذلك مؤكدا أن طبيعة الرواسب هى التى تحدد طبيعة الأفعال الانسانية . حيث تعتبر هذه الأفعال الى حد ما تجليا لهذه الرواسب ، وعادة مايتخذ هذا التجلى فى اطار الكائنات البشرية شكلين رئيسيين . الشكل الأول ، الأفعال التى لاتتبعها ردود فعل كلامية ، أو الأفعال التى لاتتبعها عمليات وعى ذاتية ، وذلك مثل الفعل التلقائى أو الغريزى ، حيث (أ) الراسب يقود الى (ب) الفعل أو السلوك . أما الشكل الثانى فيتمثل فى الأفعال التى تتبعها فى العادة ردود فعل كلامية وأيديولوجيات أو تبريرات ، ودوافع ونظريات وعمليات سيكولوجية تتصل بالضمير الفردى ، وعديد من ردود الفعل الكلامية وغير الكلامية ، الصريحة والضمنية (١١٦) .

(و) تعكس الرواسب والمشتقات فى العادة علاقة الوجود الاجتماعى الخارجى بالتكوين الداخلى للفرد ، وهو مايعنى أن باريتو يحاول أن يجعل العناصر الفردية البيلوجية والسيكولوجية أساسا لكل التكوينات الثقافية والحضارية الخارجية ، وهو مايعنى تأكيدا على المداخل الفردية التى تذهب الى اعتبار الفرد أصلا للوجود الاجتماعى . وفى هذا الصدد نجد أن فلفريدو باريتو يعيد الى الأذهان نفس المداخل الفردية التى أكد عليها ماكس فيبر وبرنسلاو مالينوفسكى . حيث يذهب فيبر الى القول بأن القيم من داخل التكوين الفردى هى التى تشكل أساسا للوجود الاجتماعى . فالقيم البروتستنتية هى التى شكلت من خلال الفرد النظام الرأسمالى الحديث . هذا فى حين نجد أن مالينوفسكى يؤكد أن سعى الفرد لأشباع حاجاته البيلوجية التى تتطلب اشباعا ، يؤدى كنتيجة تالية الى صنع الحضارة والثقافة ليس من خارج الذات الفردية ، ولكن من داخل التكوينات العميقة داخل عمق الذات الفردية . ذلك يعنى أنه وان اختلف العلماء عن بعضهم البعض فى تحديد طبيعة العناصر التى تختار كمبادئ مفسرة للوجود الاجتماعى والتفاعلات التى تتم فى اطاره ، فان هناك اتفاقا على انطلاق هذه المبادئ أو المتغيرات من داخل الفرد الى المجتمع .

يبقى بعد ذلك أن نحدد طبيعة هذه الرواسب ، ثم ماهى الوظائف الرئيسية التى تقوم بها فى اطار الوجود الاجتماعى الحى والمتفاعل . استكشاف وجهة نظر باريتو فى هذا الصدد ، يصل بنا الى أنه يطرح ستة فئات من الرواسب . باعتبارها الرواسب الحاكمة لديناميات استقرار المجتمع وتغيره ، هذه الفئات يمكن ذكرها فيما يلى :

١ – الميل الغريزى لتأسيس الترابطات .

ويعنى الميل الى تأسيس الترابطات القدرة على التفكير ، والابداع والخيال ، وامتلاك العبقرية ، والأصالة . وهى القدرات التى لها متتالياتها التى تنعكس فى شكل دفع هذه الفئة من الرواسب للتقدم الانسانى ، وهو المفهوم – التقدم – الذى يحدده فلفريدو باريتو (١١٧) .

وتقود غرائز رواسب الترابط الميل الى تأسيس الترابطات بين كل أنواع العناصر المشتته . وذلك بدون أى معرفة مسبقة عن الصلات الجوهرية التى بين هذه العناصر . ويرتبط بذلك الميل الى التجديد ، وتأسيس الاختراعات ، وصياغة الأطر العامة وبناء المشروعات . ويعمل هذا الميل لتحقيق هذه الغايات بالاستناد الى المهارة ، الدهاء بدلا من الاصرار والعناد . يعمل هذا الميل أيضا بالطرق غير المباشرة وليست المباشرة ، ويميل البشر الذين توجد لديهم هذه الرواسب بقوة الى تجنب الصراع الصريح ، ويميلون الى الدوران حول المشاكل والعقبات ، لكنهم يجفلون من المواجهة المباشرة لها (١١٨) .

وحسبما يذهب باريتو فان محاولة تحليل هذه الفئة من الرواسب تكشف أنها تضم ثلاثة عناصر أساسية ، هذه العناصر هى :

(أ) الميل الى تأسيس الارتباطات بين العناصر المشتتة كما أشرنا .

(ب) البحث الدائم عن الارتباطات والارتباطات الأفضل .

(ج) الميل الى الاعتقاد فى أنهم ينجزون ماهو متوقع منهم .

ويكشف البحث فى طبيعة هذه الفئة أنها ذات طبيعة تجريبية ، ليس بالمعنى التجريبى – المنطقى ، ولكن بمعنى محاولة اجراء كل أنواع الارتباطات ، وتأسيس الصلات والعلاقات بين الأشياء وذلك من أجل الوصول الى اكتشافات جديدة وغير متوقعة ، فهم عادة ماينجزون الأشياء غير المتوقعة . ومن الطبيعى أن تؤدى نتائج هذه التفاعلات الى تحقيق التقدم . ويؤكد باريتو أن راسب الترابط يعتبر هو الأساس المشترك بين الثيولوجيا ، الميتافيزيقا ، العلم التجريبى ، حيث يمكن اعتبار هذه الأنواع الثلاثة من النشاط – باحتمال كبير – تجليات لنفس الحالة العقلية . ومع ذلك فنحن لانعرف كيف يمكن للانسان ، الذى يمتلك ذات الحالة العقلية أن يتجه الى تأسيس نشاطات مختلفة تماما عن آخر يمتلك ذات الحالة العقلية .

وبرغم الانبثاق عن نفس الظروف أو الحالة السيكولوجية فان هناك عائقا لايمكن تجاوزه بين ماهو منطقى وماهو غير منطقى . فمثلا اذا ظهرت (أ) فى حالة ارتباط دائم مع (ب) . فان العلم المنطقى – التجريبى يستنتج أنه من المحتمل بدرجة عالية أن يستمر هذا الارتباط . حيث نجد استمرارا فعليا لظهور المتغيرين مع بعضهما . غير أنه ليست هناك ضرورة يمكن نسبتها الى هذه القضية ، حيث نجد أن الانسان يفرض بقرة شيئا ما – ليس تجريبيا – على القضية ، وهو تأثير الايمان . ومن الطبيعى أن يضيف العالم المبدع شيئا ما ، فهو يتخيل ، ويخترع غير أن ذلك لا ينشأ عن فراغ . وانما نجده فى جهده هذا موجها بتخميناته وافتراضاته وتصوراته القبلية . ومع ذلك فاننا نجد أن باريتو يؤكد أن التجربة فى هذه الحالة سوف تظل باقية لكى تصحح أى خطأ قد ينشأ عن العواطف التى قد يخضع الباحث لتأثيرها .

وعلى النقيض من ذلك فاننا نجد أن العواطف تلعب دورا رئيسيا بالنسبة لغير العالم ، حيث تتم الموافقة على القضايا – فى هذا الاطار – بالنظر الى الايمان ، فتلك هى القاعدة التى يخضع لها غالبية البشر . وكلما كان الاتصال قويا بين العالم الباحث والبشر فى المجتمع ، كلما كانت هناك احتمالية أكبر فى امكانية استسلامه للتصورات الشعبية ، ولكما كان أكثر ميلا لاغفال الصراع الذى قد ينشأ بين التجربة والمعتقدات المستندة الى العاطفة . وذلك هو سبب أن الدارس فى العلوم الاجتماعية يجد من الصعب عليه التمسك بالأسلوب المنطقى – التجريبى أكثر من الكيميائى أو العالم الطبيعى على سبيل المثال (١١٩) :

٢ – غريزة استمرار الجماعة أو التجمع .

وتشكل هذه الفئة . من الرواسب جوهر المجموعة الثانية . وهى مضادة فى فاعليتها لرواسب المجموعة الأولى . واذا نظرنا اليها من الداخل فسوف نجد أنها تضم العناصر التالية :

(أ) دوام العلاقات بين الشخص والأشخاص الآخرين ، أو بين الفرد والآخرين .

(ب) العلاقات التى تسود الجماعات الأسرية والقرابية .

(ج) العلاقات بالأماكن التى يكون الشخص قد ارتبط بها .

(د) العلاقات التى تسود الطبقة الاجتماعية .

(هـ) استمرار العلاقات بين الأحياء والأموات .

(و) استمرار العلاقات بين الشخص المتوفى وبين الأشياء التى كانت تنتمى اليه أثناء حياته .

(ز) بقاء واستمرار التجديدات التى تمت .

(ح) استمرار أو بقاء الأشكال والتشكلات .

(ط) تحول العواطف الى حقائق موضوعية .

(ى) التشخصيات Personifications .

(ل) الحاجة الى تجريدات جديدة (١٢٠) .

ومن الطبيعى أن تكون فعالية فئة الرواسب الثانية المتعلقة باستمرار التجمعات Persistence of aggregates ، مضادة لفاعلية المجموعة الأولى من الرواسب . ذلك لأن الفئة الثانية من الرواسب تتضمن استمرار الترابطات بمجرد تأسيسها ، هذا الى جانب التمسك بها . أيضا من خصائص أفراد هذه الفئة السلوك المباشر ، والرغبة فى الصراع الصريح والموافقة عليه . هذا الى جانب الميل الى تجاوز العقبات وليس الدوران حولها ، ثم الميل الى استخدام القوة ، أيضا الميل الى النزعة التقليدية بدلا من الميل الى التجديد . وتضم هذه الفئة أيضا غياب المهارة والدهاء عن أصحابها (١٢١) .

بالاضافة الى ذلك يعنى راسب استمرار التجمعات التأكيد على العادات والتقاليد ، وكافة الممارسات والمعتقدات الأخرى التى تستمر عبر فترة طويلة من الزمن . ويعد وجود رواسب الاستمرار وتعمقها وانتشارها فى اطار الجماعير مسألة أساسية بالنسبة لنظرية باريتو عن التوازن الاجتماعى أو دورة الصفوة . ويفسر لفنجستون Livingston ذلك فيؤكد أن اتجاه العقل (الغريزة العاطفة ، الدافع) هو المسئول عن خلق الوحدات أو العناصر ، ذات الأهمية الرئيسية والثانوية فى تحقيق التوازن الاجتماعى . اذ يحدد عمق العاطفة أو الدافع مايمكن أن نسميه عادة بالطابع Character على المستوى الفردى ، وهو الذى يشكل نموذج الحضارة أو الثقافة التى تسود مجتمعا معينا . وقد يسود تجمع العناصر المستمرة الى الاعتقاد فى الشر devil أو الديمقراطية ، فالأمر سواء بالنسبة لباريتو ، فهى عناصر غير منطقية يمكن استيعابها بصورة سلبية والموافقة عليها ، ومن ثم التمسك بها بقوة . ثم يحاول باريتو تتبع هذه العناصر حتى يسلمها الى مصدرها الكائن فى الغريزة ، اذ يؤكد باريتو ، أنه بعد تشكل الجماعة ،

فان الغريزة تبدأ فى أداء دورها بطاقات متنوعة ، وذلك لمنع الأشياء أو العناصر المترابطة من التفكك . ويمكن مقارنة هذه الغريزة بصورة فجة بفاعلية القصور الذاتى فى الميكانيكا ، ذلك أنها تميل الى مقاومة الحركات التى تثيرها غرائز أخرى .

والى حد كبير تصبح لمجموعة الرواسب هذه فعاليتها بين الجماهير . ويعتمد التوازن الاجتماعى ، وأيضا انهيار احدى الصفوات أو صعود أخرى على درجة النجاح التى تستطيع أن تحققه من خلال ابتكار الصفوة لصياغة يمكن بواسطتها أن تخاطب عواطف الجماهير . فى مقابل ذلك تقف الجماهير موقفا سلبيا فيما يتعلق باستيعابها لهذه العواطف المتغيرة أساسا ثم الاحتفاظ بها . وتكمن فعالية الصفوة أساسا فيما يتعلق بالعواطف المتغيرة ، حيث تعتبر الصفوة فعالة فى استغلال هذه العواطف من حول صياغتها الذكية . وطالما أن العواطف تظل غير متغيرة ، فان نفس الأمر يحدث بالنسبة للجماهير بغض النظر عن تغيير الصفوات لمواقعها . وفى التحليل النهائى ، فاننا نجد أن الشروط الوجودية للجماهير ليست هى التى تحدد عواطفها ، ولكن على العكس من ذلك تماما ، اذ تظل الجماهير دائما عمياء وغير عقلانية وذلك لأنها محكومة بواسطة عواطف ، غرائز ، دوافع ، أو قوى لاشعورية تدفعها ، فالجماهير محكوم عليها أن تظل كذلك دائما ، وهذا قدرها (١٢٢) .

ذلك يعنى أن باريتو يرى أمامه دائما صفوتين ، وجماهير خاضعة صفوة تحكم مزودة برواسب الترابط ، تجدد وتملك مهارة الحكم وأساليب الخداع للمحافظة على السلطة فى يدها . غير أن هذه الصفوة قد تضعف رواسبها بمرور الأجيال ، ومن ثم يصبح مقدورا عليها أن تخلى الطريق لصفوة جديدة تمتلك رواسب قوية تؤهلها للسيطرة والحكم . كل ذلك والجماهير بعيدة تماما عن اللعبة السياسية ، تحكمها فئات من الرواسب مختلفة تماما . حيث رواسب تؤكد على ماهو قائم . وذلك يعنى أن ثمة رواسب يطرحها باريتو للتغيير وفرض الانهيار على الوجود الاجتماعى القائم فى مواجهة رواسب أخرى تفرض الحفاظ عليه والتمسك به . غير أن القضية الحادة التى تواجهنا فى هذا الصدد تتمثل أن باريتو وأن أوضح تبدل رواسب الصفوة ومن ثم دورة الصفوة إلا أنه لم يوضح بصورة حاسمة كيف تدوم عواطف الجماهير من غير تبديل أو تغيير .

٣ – الحاجة الى التعبير عن العواطف بأفعال خارجية .

وتشكل رواسب هذه الفئة المجموعة الثالثة من الرواسب ، ووظيفتها الأساسية ربط

الانسان الفرد من داخله بالوجود الاجتماعى الخارجى بالنسبه له ومن مظاهر هذه الرواسب الأبعاد التالية .

(أ) الحاجة الى فعل شئ مايعبر عن الذات الانسانية من خلال تأسيس الترابطات المختلفة ، ويدخل فى هذا الاطار أيضا الانجذاب الدينى (١٢٣) .

(ب) اللجوء الى طقوس معينة مثل التصفيق أو صيحات الغضب أو المرح للتعبير عن مشاعر وعواطف وتفاعلات داخلية (١٢٤) .

(ج) تعنى هذه المجموعة ايضا حاجة الانسان الى التعبير عن عواطفه بأفعال خارجية يدخل فى نطاقها التبريرات العقلية أو التعبير عن الذات (١٢٥) .

(د) من شأن هذا التعبير الخارجى أن يدعم هذه العواطف إلا أنه قد يثيرها أيضا . فالبشر قد تكون لديهم حاجة فى بعض الأحيان الى فعل شئ ما ، وهم اذا فعلوا شيئا ما ، فان من شأن ذلك أن يدعم هذه الحاجة الى التعبير عن مجموعة الرواسب هذه (١٢٦) .

غير أن التعبير بأفعال خارجية عن العواطف الداخلية قد يتخذ شكلين رئيسين ، الأول التعبير الفردى ، الذى يدعم توازن الذات الفردية . فقد يعانى الفرد من توترات معينة ، قد تتخذ شكل الانفجار الغاضب مما يدفعه الى سلوكيات اجتماعية محددة ، يستعيد فى أعقابها الانسان توازنه مباشرة ، ومن ثم فهذا الشكل عادة مايستهدف احفاظ على الذات الفردية فى حالة من التوازن . أما الشكل الآخر فيتمثل فى التعبير عن الذات من أجل الآخر ، يدخل فى ذلك التعبير بسلوكيات معينة للتعبير عن حب الآخرين ، أو كراهيتهم ، وطلب القبول أو الموافقة منهم . فى كل هذه الحالات فان التعبير عن الذات الفردية لايستهدف فى هذه الحالة توازن الذات الفردية ، ولكنه يستهدف بالأساس توازنا اجتماعيا . واستقرارا لوجود الانسان فى اطار السياق الاجتماعى ، والعلاقات الاجتماعية التى تغلف وجوده .

٤ – الرواسب المرتبطة بالألفة الاجتماعية .

وتشير مجموعة الرواسب هذه الى الحاجة للاتحاد والتوافق مع الآخرين فى اطار حالة الاجتماع ، ويدخل فى اطارها المظاهر التالية :

(أ) الاشفاق على الذات ورفض المعاناة .

(ب) الترهب والزهد وعمق البعد الغيرى لدى الانسان والتقشف .

(ج) قبول مشاركة الآخرين للفرد فى ثروته الخاصة .

(د) الحاجة الى قبول الجماعة واستحسانها .

(هـ) عواطف الشعور بالتفوق على الآخرين .

(و) مشاعر الشعور بالدونية بالنسبة للآخرين (١٢٧) .

ويؤكد باريتو أن هذه الفئة من الرواسب تتكون من مجموعة الرواسب التى ترتبط بالحياة فى مجتمع ، أيا كان المعنى الذى يوحى به ذلك . ثم يضيف أننا نلاحظ الحاجة الى اتحادات معينة بين معظم البشر ، وهذه الاتحادات من أنواع كثيرة . بعض هذه الاتحادات قد يكون لمجرد التسلية ، بينما بعضها الآخر قد يتأسس لتحقيق فوائد تعود على الأفراد الأعضاء ، بينما هناك جماعات واتحادات أخرى ذات أهداف دينية أو سياسية أو أدبية . اذا فلدى البشر حاجة قائمة ودائمة لتأسيس اتحادات معينة . وسواء التحق الانسان منا بالكنيسة أو الحزب السياسى أو النادى الاجتماعى .. الخ ، فان نفس الشئ قائم ، طالما أن التحاقه بهذه الجماعة أو الاتحاد ، يتحدد بواسطة الحاجة المشتركة الى ذلك .

ويحاول باريتو أن يحصر الفئات الفرعية الأخرى لهذا الراسب فيؤكد أن منها الحاجة الى الاتحاد ، التوافق ، التقليد ، هذا الى جانب توسيع نطاق الاشفاق على الذات ليشمل الآخرين . كل ذلك يدعم ظاهرة النزعة الانسانية ، مثال على ذلك غريزة رفض المعاناة (التى تعنى الشعور بعدم الرضا عند رؤية المعاناة سواء كانت هذه المعاناة مفيدة أم لا) وغالبا ماتلاحظ هذه العاطفة فى الأفراد الضعفاء ، الخاضعين ، فاذا توفرت لهم الفرص لتجاوز هذه المعاناة ، فانهم عادة مايميلون الى التصرف بقسوة ، وذلك يفسر ملاحظة يسمع عنها الانسان فى العادة وهى التى تتعلق بأن المرأة عادة ماتكون رقيقية طيبة القلب غير أنها فى ذات الوقت قد تصبح – فى ظل ظروف معينة – أكثر قسوة من الرجل .

ويدخل فى اطار هذه الفئة أيضا عواطف ، ومن ثم رواسب الترتيب الاجتماعى ، أى تدرجة البشر الى متفوقين وغير متفوقين ، راغبين فى استحسان الجماعة أو زاهدين فيه . هذه العواطف يراها باريتو ظاهرة انسانية فريدة استكشاف قدرا كبيرا منها .

وبرغم أن باريتو قد نسب الى الممارسات الصوفية فوائد متنوعة ، حيث تناولها باعتبارها نتائج لذات الراسب ، ومن ثم اعتبرها سلوكا لا عقلانيا أساسا ، غير أنه فشل – كما حدث فى أماكن أخرى – أن ينبه الى امكانية أن تكون هناك أفعالا ذات طبيعة تقشفية ، ومع ذلك فهى عقلانية أساسا . على سبيل المثال الاضراب عن الطعام من أجل أهداف سياسية معينة ، وهو الأمر الذى يختلف فى معناه عن كل الأمثلة التى اختارها لكى تبرز هذه الطبيعة اللاعقلانية . فالزهد والنسك كما يراه باريتو هو انحراف عن غريزة الألفة الاجتماعية Sociality ، حيث أنه بدون هذه الغريزة فان المجتمع الانسانى قد يتوقف عن الوجود (١٢٨) .

٥ – رواسب تكامل الفرد مع توابعه .

وتتعلق هذه الفئة بوجود نوع من التكامل بين الفرد وأتباعه أو ممتلكاته . وهى مجموعة الرواسب التى تعمل على دفع الانسان لاتيان أفعال معينة تعمل على استعادة التكامل اذا طرأ عليه تغيير ، مثل الأفعال التى تعتبر مصدرا للقانون الجنائى (١٢٩) .

وتتكامل هذه الفئة من الرواسب مع المجموعة الرابعة السابقة ، وتشير الى العواطف (الفطرية أو المكتسبة) التى تدفع الانسان الى الدفاع عن ممتلكاته ، والنضال من أجل زيادتها كميا . ومن الطبيعى أن يؤكد باريتو على العلاقة القائمة بين هذه الرواسب والتوازن الاجتماعى .

ويحاول باريتو أن يوضح ذلك ، فيؤكد أنه فى النظام العبودى كما هى الحال فى اليونان القديمة ، فان الشخص ولو لم يكن مالكا للعبيد ، فانه قد يشعر أن مالك العبيد قد أخطأ لأنه وافق على أن يستولى الآخرون على العبيد منه . وذلك ينبثق من عاطفة مقاومة أى تغير فى التوازن الاجتماعى السائد . ومثال التوازن الجزئى يتجسد فى الشكل الذى يستطيع فى اطاره المواطن اليونانى أن يحيل كل اليونانيين الآخرين الى رجالا أحرارا وكل البرابرة على عبيد . أما شكل التوازن المثالى الكلى ، فهو الشكل الذى يسود فى بعض الفترات التاريخية التى شهدت الحاجة الى الألغاء الكلى لنظام العبودية . فاذا اهتز التوازن القائم أو تغير ، فان هناك قوى تبدأ فاعليتها لكى تستعيد تأسيس هذا التوازن . وهذه القوى بالطبع هى العواطف التى تكشف عن نفسها فى الأشكال العديدة من الرواسب . وهى الرواسب التى تختفى تحت قناع المشتقات . ومن الطبيعى أن لا تعرف الجماهير شيئا عن (التوازن) ، (القوى) .. الخ ، اذ أن هذه

تعتبر مصطلحات علمية يستخدمها العالم الباحث . فمفاهيم مثل (العدل) ، (الظلم)، (الحق) ، (الخطأ) ، هى عبارة عن كلمات يستخدمها البشر المتنورين لكى يعبروا عما اذا كانوا يوافقون على شئ ما أو أن شيئا ما يؤذى عواطفهم . وفى هذا الصدد لم يحدد لنا باريتو شيئا عن تصوره فيما يتعلق بالتوازن الاجتماعى . غير أن الأمثلة والتوضيحات التى استخدمها تتلاءم وتصوره للانسان باعتباره كائنا غير عادل . فالانسان من وجهة نظر باريتو ليس ملهما بواسطة مثل كالعدل ، والحق ، ولكنه مدفوع بغريزته للحفاظ على الذات . وهى غريزة يشترك فيها مع الحيوان . وليس لها أية صلة بأية مثل تتعلق بالعدل أو الحق (١٣٠) .

فالحفاظ على الذات – وهو مفهوم يشبه الى حد كبير المفاهيم البيلوجية – هو الذى يتلاءم مع هدفه . ذلك لأن هذا المفهوم يساعد على ابراز الطبيعة الشبيهة بالطبيعة الحيوانية فيما يتعلق بالفعل أو السلوك البشرى بصفة عامة . ومرة أخرى نجد أن باريتو يحاول أن يحذف تماما من قضية التوازن الاجتماعى أى عنصر يتصل من قريب أو بعيد بالمصلحة بالمعنى العقلانى لذلك . فهو يتجنب باصرار النظر الى التصرفات والسلوكيات البشرية بأى صورة قد تعكس الاقتراب من درجة معينة من العقلانية (١٣١) .

٦ – راسب الجنس .

وفى هذا الصدد يكتب باريتو أن مجرد الرغبة الجنسية – برغم كونها قوية فى الجنس البشرى – ليست ذات أهمية بالنسبه له . ويؤكد باريتو أن راسب الجنس قد يكون منطقة للغريزة ، فيختفى حينئذ تحت قناه من الزهد والتنسك ، فهناك بعض البشر الذين قد يبشرون بالفضيلة كوسيلة للتسامى بالنسبة لأفكارهم خاصة مايتعلق بالجنس . وهنا نجد أن باريتو يستخدم بوضوح مفهوم الراسب باعتباره اظهارا أو تجليا لباعث غريزى له جذوره فى العمليات الجسمية ، البيلوجيا والكيميائية . فاذا كان باريتو لم يحدد – كما بدا ذلك – عما اذا كانت الغريزة قوة بيلوجية أو عاملا ثقافيا ، فانه فيما يتعلق براسب الجنس نجده يؤكد على طبيعته البيلوجية . اذ تؤدى غريزة الجنس الى ظهور الأفعال ذات الطبيعة الدائمة ، والتى استمرت خلال التاريخ ، ومازال لها وجودها البارز فى الوقت الحاضر . وتعتبر هذه الأفعال والرواسب الكامنة خلفها محاولات للسيطرة على غريزة طبيعية أو تنظيمها أو قهرها أو التسامى بها . بل أن الأمر قد يتصاعد ليصل الى نتيجة مؤداها وجود ديانة للجنس ، كما فى كل الديانات الأخرى . ذلك يعنى أن عدم

مرونة الأشكال الاجتماعية للجنس تؤدى بالتأكيد الى الانحراف والنفاق . هذا وتعتبر التحريمات العديدة المتعلقة بالجنس ، وبالمثل أشكال الاحتشام المفرط ، والامتناع ، والتنسك ، مجرد أساليب عديدة لاخفاء الرغبة الجنسية ، وتلك أساليب عديدة لردود فعل غير منطقية لقوى داخلية ذات طبيعة عارمة .

وهنا نجد تأكيد باريتو الذى يذهب الى أن راسب الجنس له فاعليته ليس فقط من خلال الحالات العقلية التى تبحث عن اتحاد الأجناس ، أو التريث فى اعادة جمع هذه الأشياء أو العناصر . ولكن لها فاعليتها أيضا فى الحالات العقلية التى تبرهن على انتهاك . أو رفض أو كراهية المسائل الجنسية وهنا نجد أن زايتلن ينتقد باريتو حول هذا المنطق فى التفسير مؤكدا أن الانسان يبحث سدى اذا حاول أن يفسر بعض الممارسات الصوفية أو الوصايا أو حتى تحركت معينة ، الخ ، عن طريق نسبتها الى الظروف الاجتماعية والثقافية . يعنى ذلك أن غياب مثل هذه المحاولة سوف يطرح مسألة تصدمنا للغاية ، حينما يحاول الباحث أن يدرك أن باريتو قد شرف بأن يكون أحد مؤسسى التحليل الوظيفى فى علم الاجتماع . وفى الحقيقة لايجد الباحث منا أى تحليل من هذا النوع فى كتابات باريتو ، ولكن مايجده هو مجرد توضيحات للرواسب ذات الأهمية البارزة ، ومن ثم نتعلم منه أن الراسب يكون فعالا من خلال الحديث والكتابة ، ونجد له ظلاله فى الأدب . وحينما يتحدث البعض عن الأدب اللا أخلاقى فان هذا فى غالب الأحيان يعتبر مجرد نوع من النفاق ، حيث يجعل البشر من الكلمة وليس من الشئ ذاته الهدف الأساسى . انهم قد يفعلون الشئ ، لكنهم يتجنبون الحديث عنه ، وهنا نجد أن باريتو يوكل الى نفسه مهمة المغامرة بخلع الأقنعة . حيث تعتبر الفضيلة والأخلاق الجنسية ليست إلا بلاغة لغوية مصاغة بدرجة واعية لكى تخفى جوهر الانسان .

ويعتبر راسب الجنس راسب دائم ككل الرواسب الأخرى ، وذلك واضح على مايذهب باريتو من الأنماط الدائمة لرد الفعل الذى يشاهده الانسان خلال التاريخ كنتيجة لانتهاك بعض هذه التحريمات . حيث تسلم هذه الانتهاكات الى تأسيس معتقدات ديانة الجنس كردود فعل لا تختلف كثيرا عن ردود الفعل التى تتم نتيجة لانتهاك ديانة أخرى . حيث ينبغى النظر الى التغيرات عبر الزمان فيما يتعلق بالأخلاق الجنسية والتنوع الذى نواجهه من ثقافة الى أخرى باعتباره مجرد تغير فى الشكل (١٣٢) .

وبالنسبة لباريتو يعكس راسب الجنس بصورة قوية الطبيعة العامة للرواسب ، حيث القوة الدائمة التى لايمكن اعاقتها ، وأيضا التى لاسيطرة للانسان عليها أو لن سيطرته ضعيفة عليها ، فالمشتقات هى التى تتغير فقط . غير أن المشتقات ليس له تأثير أساسى على طبيعة وجود الانسان (١٣٣) .

ويؤكد تيماشيف أن تصنيف باريتو على ما أوضح أحد دراسيه (يمثل عملا جادا وهاما لواحد من الرواد) فعلى الرغم من الاضافات والتعديلات التى أدخلت على هذا العمل الهام ، إلا أنه من غير المتوقع أن يحاول الباحثون تطوير هذا الجانب من أعمال باريتو نظرا لما ينطوى عليه من أخطاء واضحة .

حيث كان تصنيف باريتو معتمدا الى حد ما على دراسته لبيانات مستمدة أساسا من مؤلفين قدامى . فقد ذهب الى أن هناك تراثا هائلا يصور الحياة الواقعية عموما ، وبالتالى فالتركيز على دراسة هذا التراث الكلاسيكى لايفصح مجالا للتحيز . ولما كانت الرواسب هى القضايا الدائمة (العامة) فمن اليسير اشتقاقها من التحليل الدقيق للتراث الكلاسيكى . وكل عنصر نختاره من هذه المصادر يتعين أن نفسره منذ البداية بأنه مظهر لعاطفة معينة ، ومن ثم نخضع العناصر الجزئية للمقارنة ، ثم نؤلف من مجموعات العناصر المتشابهة فئات محددة أو فئات فرعية . والواقع أن هذا الاجراء (والذى) يصعب اعتباره خطوة متقدمة على مايعرف الآن بتحليل المضمون ، هو أقرب شئ للمنهج الاستقرائى يمكن أن نعثر عليه فى أعمال باريتو (١٣٤) .

ثالثا : المشتقات ، التعبير الظاهرى عن عواطف كامنة .

استنادا الى مايذهب اليه باريتو تعتبر المشتقات هى التعبير أو التجلى الخارجى للرواسب . ويحاول باريتو أن يحدد المشتقات فيؤكد أن البشر يحتاجون فى العادة أن يجعلوا سلوكهم غير منطقى يبدو منطقيا . ومن ثم فهم يقدمون حينئذ تفسيرات منطقية زائفة لأفعالهم ، ثم يعتقدون عن خطأ فى هذه التفسيرات باعتبارها سببا لسلوكهم . وتشتق المشتقات قوتها ليس من الاعتبارات المنطقية التجريبية ولكن من العواطف (١٣٥) .

وتنتشر المشتقات ، لأنها بالاضافة الى الرواسب ، تعتبر تجليا للعواطف . وهى منتشرة ليس لأنها مشتقة من العواطف الخاصة بالأفراد ، ولكن لأنها تستند الى العواطف السائدة ، أعنى لأنها تستند الى سلطة المأثورات السائدة فى المجتمع ، أو الى سلطة الأفراد المسيطرين

فيه ، أو الى سلطة كائنات ماوراء الطبيعة . غير أن كل هذه المشتقات يعتبر مجرد لغو كلامى لا ثقة فيه يخفى وراءه السبب الحقيقى المتمثل فى العواطف . ويؤكد باريتو أنه حينما يرغب دارس السلوك البشرى أن يدرس الظواهر الاجتماعية فان عليه أن يهتم باظهارات أو تجليات النشاط الاجتماعى ، أعنى المشتقات ، ثم يؤكد أنه لا يدهشنا أن نعرف أن الراسب يعتبر قوة تتجاوز الثقافات المختلفة . أو بعبارة أخرى ، فان الرواسب تعتبر المحور الرئيسى للفعل فى كل الثقافات (الصينية ، الإسلامية ، الكالفنية ، الكاثوليكية أو الهيجلية أو المادية) . فمثلا نجد أن كل هذه الثقافات تجفل من السرقة . غير أن كل منها يقدم تفسيرا مختلفا لسلوكه . وبعبارة أخرى ، فن الحالة الحقيقية تتمثل فى وجود عدد من المشتقات التى ترتبط براسب واحد له فاعليته فيها كلها ، مع التأكيد على نتيجة واحدة توافق كل هذه المشتقات أو التفسيرات (١٣٦) .

وبالنظر الى هذه التفسيرات – المشتقات المتنوعة – التى تقدم لنفس الخصائص الثابتة ، يستنتج باريتو أن السبب الحقيقى للسلوك ينبغى البحث عنه فى الرواسب الدائمة والكامنة وراء المشتقات المتباينة . ثم يبرهن على أن اتباع المدارس الفكرية المختلفة يشتركون فى الحاجة الى الحفاظ على تكامل شخصياتهم وأيضا الحاجة الى الحفاظ على الاعتبار الذاتى ، وهو مايعنى أن مجموعة الرواسب من الفئة الرابعة قادرة على تفسير سلوكها .

ثم يؤكد باريتو أن البشر فى كل مكان وزمان يعتقدون فى الحقيقة الموضوعية المتعلقة بالآلهة والأرواح والتقدم والحرية والعدل . قد تتغير أسماء هذه العناصر مثلما تفعل النظريات الدينية والفلسفية والأخلاقية لتفسير هذه المعتقدات . غير أننا سوف نكتشف دائما وجود اعتقاد مشترك يؤكد على وجود جذور كل هذه التكوينات المتباينة فى عنصر واحد ، ثابت ودائم لايتغير . وهو فى هذه الحالة الفئة الثانية من الرواسب التى تؤكد على الميل المحافظ لاستمرار الجماعة أو التكامل الاجتماعى .

ويكرر باريتو أنه من غير المفيد ، أو من قبيل ضياع الوقت أن نناقش مصداقية مذهب أو عقيدة مع معتنقيه . فلم تنهار المسيحية بسبب البراهين التى تناقش الواقعية التاريخية للنبى عيسى عليه السلام . ذلك يعنى أن على الاستراتيجية العلمية أن تتبع عديدا من أنساق المعتقدات عن طريق نسبتها الى مصادرها المشتركة المتمثلة فى الرواسب الأساسية ، ذلك فقط هو الذى يمكن أن يساعد على تقدم العلم ، وأيضا على تحقيق درجة من التنوير (١٣٧) .

غير أن السؤال الذى نطرحه فى هذا الصدد يتمثل فى الأسلوب الذى وصل من خلاله باريتو الى تحديد المشتقات . وحسبما يذهب لويس كورز ، نجده يؤكد أن باريتو قد وصل الى

تحديده للمشتقات من خلال فحص مختلف المذاهب التى ترتبط بذات الفعل أو السلوك ، على سبيل المثال فهو قد فحص العقيدة المسيحية أو النظرية السياسية الليبرالية . ومن خلال فحص هذه النظريات نجده يعزل العناصر التى تتصل بمعايير العلم التجريبى المنطقى ، ومن ثم نجده يستبعد العناصر غير العلمية ، مؤكدا على اعتبارها عناصر دائمة أو رواسب ، فاصلا عن عناصر أخرى متغيرة أو مشتقات . حيث تظهر المشتقات فقط حينما تظهر الحاجة الى برهنة أو حوار أو تبرير أيديولوجى . وحينما يتواجد التبرير الأيديولوجى ، فاننا نجد أن التحليل الذى قدمه باريتو يبحث عن العناصر الدائمة نسبيا والكامنة وراء الرواسب (١٣٨) .

غير أننا اذا اتفقنا على أن كل الأفعال أو التبريرات التى تقدم تستند فى التحليل النهائى بشكل ما الى الرواسب أو العواطف ، فان السؤال الذى نطرحه يتعلق بطبيعة العلاقة بين هذه المكونات الثلاث . فى هذا الصدد نجد أن باريتو يؤكد على الفارق بين نظرته للأفعال الانسانية ، وبين التفسير العقلى الذى يقدم لها . اذ يفترض هذا التفسير الأخير أن الناس يتجهون الى التفكير أولا ، أو أنهم يصوغون – بداءة – الأفكار والنظريات ، ثم يتصرفون بعد ذلك وفقا لها . إلا أن باريتو يذهب الى أن السلوك يتبع عملية عكسية ، فالتصرف يسبب التبرير العقلى . ذلك يعنى أن باريتو يذهب الى أنه ليست هناك علاقة سببية مباشرة بين النظرية والفعل ، فكلاهما ينتج عن عواطف أساسية تبدو فى الفعل بطريقة دائمة أو ثابتة فى حين تتجلى العواطف على مستوى النظرية فى التبرير العقلى على نحو غير منظم (١٣٩) .

والحقيقة فى رأى باريتو أن البشر لايقومون فى البداية بصياغة أفكار ونظريات ثم يتصرفون تبعا لما تمليه عليهم أفكارهم ونظرياتهم ، ولكن العكس هو الصحيح . فالبشر يتصرفون تبعا لما تمليه عليهم أفكار ونظريات تبرر تصرفاتهم (١٤٠) . وتأكيدا لذلك يذهب بيتروم سروكن الى القول بأن فئة الرواسب هى التى تحدد طبيعة الأفعال الانسانية ، التى تعتبر الى حد ما تجلياتا لهذه الرواسب ، وفى اطار الكائنات البشرية تتخذ هذه التجليات أيا من الأشكال التالية . فإما ان تتخذ شكل الأفعال التى لاتتبعها ردود فعل كلامية ، أو عمليات ذاتية شعورية كالغريزة أو الأفعال التلقائية . بحيث نوضح ذلك بالشكل التالى : (أ) الرواسب يؤدى الى (ب) السلوك.

راسب (أ)　　(ب) فعل أو سلوك

أما الشكل الثانى فيتمثل فى الأفعال التى تتبعها أيديولوجيات وردود فعل كلامية ، أو بعض العمليات السيكولوجية الشعورية أو النظريات ، أو تقديم الدوافع ، المقاصد أو الأهداف للاقناع بالفعل . أو غير ذلك من ردود الفعل الكلامية الأخرى الصريحة والضمنية . حيث نوضحها بالشكل التالى : (أ) الراسب يؤديا تزامنيا - فى نفس الوقت - الى (ب) السلوك أوالفعل ، وأيضا الى (ج) ردود الفعل الكلامية . ونوضحها بالشكل التالى :

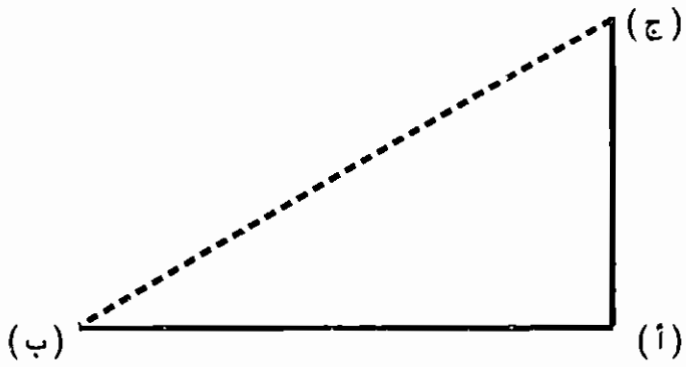

حيث تسمى ردود الفعل الكلامية هذه بالمشتقات ، وهى تقود الى علم اجتماع الأفكار والأيديولوجية عند باريتو . أو الى علم إجتماع ردود الفعل البشرية الكلامية .

واستنادا الى علاقة الرواسب بالمشتقات على هذا النحو لاحظ بعض المفكرين وجود تشابه كبير بين باريتو وكارل ماركس . اذ نجد أن باريتو لم يعين قيمة كبيرة للمشتقات أو الأيديولوجيات . حيث أنها بالنسبة لباريتو ليست إلاتجلياتٌ للرواسب . فالرواسب هى أب Father الأيديولوجيات . حيث تعتبر المشتقات نوعا من المؤشرات التى تتحول بحسب اتجاه ريح الرواسب . ولايعتبر تأثير المشتقات معدوما ، ولكن مانقصده أن تأثيرها أقل كثيرا عن مايتصوره الكثيرين . فمن شأن المشتقات أنها متغيرة وأكثر مرونة من الرواسب . بالاضافة الى ذلك فاننا نجد أن نفس الراسب قد يشكل أصلا لمشتقات عديدة أو يختفى فى اطارها ، والعكس صحيح . وفى بعض الأحيان تنتج رواسب عديدة بنفس المشتقات المتماثلة . ويمكن للمثال التالى أن يوضح هذا الموضع ، فالراسب الذى يتخذ شكل الرعب من قتل الانسان قد يتجلى فى اطار المشتقات التالية :

- لاتقتل وإلا ذهبت الى الجحيم .

- لاتقتل لأن القتل يحرمه الله .

- لاتقتل لأن ذلك يعتبر لا أخلاقيا .

- لاتقتل لأن ذلك عملا لا انسانيا ضد القانون والتقدم والعدل .

- لاتقتل .

حيث تعتبر كل هذه المشتقات مجرد أقنعة تخفى الفاعل الحقيقى الذى يمنع فعل القتل ، وهو الراسب موضع الاهتمام ، وحسب الظروف فقد يشكل الراسب مصدرا لعديد من الأيديولوجيات الأخرى . وبرغم الاختلافات الكثيرة ، فان الأيديولوجيات ليست شيئا سوى مظاهر عديدة لنفس الراسب .

فردود الفعل الكلامية للكاثوليكى الأرثوذكسى الذى لايبيح التسامح الدينى ، وكذلك ردود الفعل الكلامية للشيوعى المتحمس الذى يهاجم بعنف عدم التسامح ، مختلفة تماما . وبرغم ذلك ، فإن رواسبهم هى ذاتها . وهى التى تتمثل فى الدافع الى فرض معتقداتهم ومعاييرهم فى السلوك على الآخرين . وتعتبر ردود الفعل الكلامية لكثير من الزاهدين فيما يتعلق بالجنس ذات أهمية محورية ، غير أن الحقيقة الواضحة أنهم يتحدثون عن الجنس أو يعلنون ادانتهم القوية له . بما يوحى باعتبار ذلك مؤشرا على راسب هذه المشتقات هو ذاته الذى يتعلق بردود الفعل الكلامية لفعل الدعارة الذى قد يرتكبه شخص خليع .

وطالما تعتمد الأفعال والمشتقات على الرواسب ، فانه ينتج عن ذلك سلسة من النتائج الهامة للغاية فيما يتعلق بالرواسب أو بديناميات الأيديولوجيات . وتتمثل أول هذه النتائج فى أن الرواسب غالبا ماتتناقض مع بعضها البعض داخل نفس الشخص ، ومن ثم فعادة ما تكون سلوكياتنا وأفعالنا متناقضة وغير منطقية فى غالبها . فاذا حددنا الأفعال المنطقية باعتبارها الأفعال التى يتطابق فى اطارها الفرض الذاتى المقصود لفعل ما مع النتائج الموضوعية التى تتحقق نتيجة لانجاز هذا الفعل ، فان قدرا كبيرا من أفعالنا ، على حد ما يوضح باريتو أكثر من أى مفكر آخر ، تعتبر غير منطقية . وباعتبار أننا نندفع لانجاز أفعالنا تحت تأثير حالة الفعالية الواضحة للرواسب ، فاننا ننجز قدرا كبيرا من الأفعال التى هى بطبيعتها غير منطقية، أو تلك التى يتصادف أن يكون الغرض الذاتى للفعل (الأيديولوجيا) مختلفا تماما عن نتائجه الموضوعية . فهما يتطابقان فى اطار السلوك المنطقى التجريبى فقط ، أو فى مجال الانجازات

العلمية . وبعيدا عن ذلك ، وفى اطار بعض الحالات القليلة الأخرى ، يعتبر السلوك الانسانى متناقضا وغير منطقيا أساسا ، وذلك لأن رواسبنا عادة ماتكون متناقضة بنفس القدر . ومن وجهة النظر المنطقية تعتبر أفعالنا غير متسقة ، وذلك لأن رواسبنا تخضع لحالة ذات طبيعة دينامية . حيث يمكن فى لحظة سريعة أن يعقب وجود راسب قوى ومسيطر راسب آخر مختلف عنه تماما . وتحت تأثير الراسب الآخر فاننا قد نتصرف بطريقة مختلفة تماما . وبايجاز فان تحليل باريتو للعلاقة بين ديناميات الرواسب والفعل من ناحية ، وبين نتائجه فيما يتعلق بالأفعال غير المنطقية للبشر ، يمثل بقدر ما ، تحليلا للسلوك الاجتماعى لا نظير له .

ويمكن القول ، بدرجة عالية من الثقة ، بأن ماسبق يتعلق بطبيعة نظرية باريتو عن المشتقات (الأيديولوجيات) . وطالما أن العلاقة بين الرواسب معقدة للغاية ، بل غالبا ماتكون متناقضة ، فانه من المتوقع أن يندر أن تكون المشتقات البشرية (الأيديولوجيات والتعبير الكلامى) منطقية ودقيقة من وجهة النظر التجريبية – المنطقية . ومن الواضح أن قدرا كبيرا من هذه المشتقات بما فيها المشتقات الاقتصادية والسوسيولوجية والدينية والسياسية (وكل مالا يشكل نظريات) ليست منطقية ، وغير متسقة ، بل متناقضة فى ذاتها ، وزائفة من الناحية العلمية . فهى لا تصف الحقائق التى تمت دراستها بدقة ، ولكنها تمثل نوعا من الدافع أو التبرير أو التعقل ، أو اضفاء الطابع الأخلاقى أو المثالى لنوع من السلوك نندفع اليه بفاعلية رواسبنا . واذا كانت الرواسب تتغير ، فان نظرياتنا الزائفة علميا تتغير هى الأخرى أيضا . فأحد الرواسب يفسح الطريق لراسب آخر مضاد ، وأن نظريتنا القائلة بأن (أ) هى (ب) تفسح الطريق لنظريتنا التى تذهب الى أن (أ) ليست (ب) ، ومن ثم فان منطق البرهنة البشرية فى أغلب الحالات أبعد مايكون عن اعتباره منطقيا . وغالبا ماتتم الموافقة على أيديولوجيا معينة أو ترفض لأنها فى غالب الحالات ليست صحيحة أو زائفة ، ولكن لأنها تتفق أو تختلف مع رواسبنا . وذلك يفسر تأثير الدعاية الصحفية أو الأحاديث الحماسية ، وكل أنواع الكلام الذى يؤثر على مشاعرنا أو عواطفنا . فبدلا من البرهنة العلمية ، نجدها تستخدم السلطة الكاملة للبرهنة اللفظية الزائفة ، تلك التى تستثير ميولنا . وبرغم كل ذلك ، فان هذه المشتقات غالبا ماتكون أكثر اقناعا من البراهين العلمية ، اذا كانت المشتقات على اتفاق والرواسب المسيطرة . وفى هذه الحالة ، فاننا اذا رغبنا فى تغيير آراء وأيديولوجيات انسان أو جماعة معينة ، فان المدخل الأفضل هو أن نغير الرواسب ، فاذا تغيرت الرواسب أو حطمت ، فان المشتقات الأيديولوجيات ، المرتبطة بها سوف تتغير أيضا . ومن وجهة النظر هذه يعتبر علم اجتماع كونت بكل مثالياته (مشتقاته) الخاصة بالوضعية ، التقدم ، ديانة الانسانية ، ليست علميا على

الاطلاق وهو فى ذلك يماثل العقيدة الفشتية الفجة . وتعتبر النظريات المتعلقة بالتقدم ، التضامن ، الديمقراطية ، العدالة ، الاشتراكية والقومية ، والوطنية ، والنزعة العالمية ، وما الى ذلك مشتقات غير منطقية من نفس النوع . وهى تختلف من حيث الشكل فقط عن المعتقدات الدينية والخاصة بالسحر البدائى ، التى تدينها هذه النظريات . وغالبا مايكون المناضلون المتحمسون ضد كل التحيزات والغيبيات ليسوا هم إلا ضحايا لأحد أنواع الغيبيات ، وغالبا مايشبهوا أصحاب العقول الجامدة التى يناضلون ضدها . فاذا أخذنا فى الاعتبار على التتابع كل المفكرين الاجتماعيين المعاصرين الأكثر شهرة مثل كونت ، سبنسر ، سمنر ، هذا بخلاف العدد المتنوع من الأيديولوجيات ، فاننا نجد أن باريتو يوضح بصورة مقنعة عدم اتساق قضاياهم ، وتناقضها ، وزيفها وعدم منطقيتها ، فى حين نجده يوضح أن الرواسب هى المسئولة عن هذه النزعة العلمية الزائفة . وقد أوضح باريتو أكثر من أى مفكر آخر الطبيعة العلمية الزائفة لمفاهيم آلهة التقدم ، والتطور والديمقراطية والتضامن والعدل والقانون ، والحقوق الطبيعية والأخلاق وما الى ذلك . وتعتبر هذه المفاهيم والنظريات بالنسبه له زائفة كأى غيبيات فجة ، فهى نفس المشتقات غير المنطقية ، غير أنها تلبس ثوبا أو طابعا معاصرا ، ذلك هو الاختلاف الرئيسى . وهو أيضا يوضح استحالة اسناد أى تعميم علمى عن الانسان أو الجماعة أو الفترة التاريخية على ردود الفعل الكلامية المتصلة به فقط ، اذ تعتبر بالنسبة له مقياسا مضللا لا يحدد طبيعة الرواسب الكامنة وراءه .

ماسبق يوضح السبب فى أن باريتو لم يعط اعتبارا كبيرا للمشتقات . اذ نجد أنه قد كرس قدرا كبيرا من انتاجه لدراسة تغيرات وتقلبات المشتقات فى علاقتها بالرواسب . وبرغم أن الرواسب تتغير أيضا ، إلا أن معدل وفعالية تغيرها عادة مايكون أكثر بطئا ومحدودية اذا قورن بتغير المشتقات وتقلبها ، فالمشتقات ذات قابلية عالية للتنوع والتغير . وفضلا عن ذلك ، ويوضح باريتو أنه برغم تنوع وتباين المشتقات من حيث أشكالها الواقعية بين مختلف الشعوب والأزمنة ، فان الفئات الأساسية للرواسب التى تندثر فى أيديولوجيات عادة ماتكون ذات دوام نسبى . ولاشك أنه بالنسبة للملاحظة السطحية توجد اختلافات هائلة بين البدائى الذى يؤله وثنة أو مليكه من ناحية وبين الاشتراكى المتحمس الذى نعايشه فى عصرنا من ناحية أخرى . اذ يمكن القول استنتاجا من ذلك أن كليهما لديه نفس رواسب التأليه و غير أن الاختلاف الوحيد بينهما يكمن فى أن البدائى يؤلة وثنا معينا ، ولتعزيز عقيدته فانه عادة مايستند الى (ناموس السحر) . فى حين أن الاشتراكى المتحمس يؤله ماركس ، لينين ، وروسو ، ومن أجل تعزيز قضيته نجده يقتبس من مؤلف رأس المال لماركس أو مؤلفات روسو . فى الماضى كان راسب

الطاعة يتجلى أساسا فى الخضوع للملك والقساوسة والنبلاء ، ولما كان هؤلاء لم يعد لهم وجود الآن ، فان الراسب مازال باقيا ، ويظهر نفسه من خلال طاعة الزعماء العقائديين ، أو قادة النقابات العمالية أو رجال الصناعة ، وما الى ذلك ، قد تختلف المظاهر لكن الراسب واحد . واذا كان راسب فرض الاتحاد على أعضاء المجتمع قد تجلى فى الماضى من خلال التعصب الدينى ، أو من خلال القضاء على أى اعتداء موجه الى الثروة الخاصة ، أو الطلاق ، وما الى ذلك ، فاننا الآن أكثر تسامحا فى هذا الصدد . غير أننا لا نتسامح بدلا من ذلك فيما يتعلق بتعاطى المخدرات ، أو فيما يتعلق بتشويه انجازات المصلحين أو اتباع ديانة الانسانية أو التقدم وما الى ذلك ، تغيرت المشتقات وظلت الرواسب هى ذاتها . ومع ذلك فان هذا التصور لايعنى بالنسبة لبلريتو أن كل هذه المشتقات غير كافية بكل تأكيد ، أو أنها ضارة اجتماعيا . فهو يؤكد أنها تمتلك قدرا من الكفاءة ، ولكن ليس قدرا كبيرا كما قد يعتقد الكثيرون . وفضلا عن ذلك يؤكد باريتو ، على تقيض كل المفكرين الذين يعتقدون أن كل حقيقة نافعة ، بينما كل ماهو غيبى ضار . ثم يذهب الى أن واقع الأمر مختلف ، فقد وقعت كثير من التحيزات – المشتقات – لأنها ذات نفع بالنسبة لتكامل النسق الاجتماعى . بينما نجد أن كثيرا من الحقائق الثابتة والصادقة يسرت انهياره . وبعبارة أخرى ، فان المشتقات (الأسطورة ، الخرافة ، العقيدة الحماسية ، الغيبيات التى تحمل وجه الواقع ، والتى تستثير الحماس) قد تكون مفيدة للجماعة . ومن ناحية أخرى فان الحقيقة الصريحة قد تكون مدمرة . وفيما يتعلق بهذه القضية يصل باريتو الى نتائج تماثل الى حد كبير تلك التى وصل اليها ميكيافيلى ، جيمس فريزر ، ليبون ، سوريل ، وآخرون . وحسب تفكيرهم فان الغيبيات والبدع قد تكون ذات أهمية حيوية بالنسبة للمجتمع بنفس أهمية الصدق التجريبى المنطقى . ماسبق يطرح الخطوط العامة لأفكار باريتو فى هذا الصدد (١٤٠) ، غير أن هناك قضايا أخرى هامة تتعلق بهذه القضية كتلك التحليلات التى قدمها باريتو حول تأثير الرواسب على المشتقات ، أو تأثير الرواسب على الرواسب الأخرى ، أو تأثير البيئة على الرواسب ، أو تأثير المشتقات على المشتقات ، وتأثير المشتقات على الرواسب . أو تلك التى تتعلق بتغير وانتشار كل من الرواسب والمشتقات وهو ماسوف نحاول التعرض له بالتفسير فى موضع آخر .

مابقى اذا أن نقدم بايجاز أنماط المشتقات كما قدمها باريتو . اذ نجده يطرح علينا أربعة فئات أساسية للمشتقات هى :

١ – المشتقات المتعلقة بالتأكيد (على موضوعات معينة) أى ذكر حقائق واقعية أو متخيلة . Simple - Affirmation .

٢ – اللجوء الى السلطة Authority أى التفسير الزائف للأحداث عن طريق الاستعانة بقوة وسحر الماضى والتقاليد والعادات أو الارادة الألهية .

٣ – الاتفاق مع العواطف أو المبادئ Accord with Sentiments or Principles ، وهى المشتقات التى تحاول تبرير الأفعال المنطقية على أساس الحقيقة المفترضة بأنها من أجل صالح الآخرين .

٤ – البراهين اللفظية Verbal Proofs وهى التى تعنى باستخدام ألفاظ لا تتفق مع الحقائق ، واستخدام التشبيه والبلاغة (١٤٢) .

وقد أوضحت الأمثلة المختلفة التى قدمها باريتو لهذه الأنواع العديدة من التفسيرات اللفظية للسلوك امكانية تداخل هذه الفئات . غير أنه من الضرورى أن نلاحظ أنه ليست هناك علاقة وثيقة بين فئات الرواسب – التى عرضنا لها من قبل – وبين فئات المشتقات . فكل منهما مستقل عن الآخر (١٤٣) .

رابعا : دورة الصفوة ، والتأرجح بين الثعالب والأسود .

اذا اتفقنا على أن كارل ماركس يعتبر المفكر الذى نظر للبروليتاريا ، فانه يمكن بنفس القدر اعتبار باريتو المفكر الذى نظر للبرجوازية . واذا كان كارل ماركس قد شخص أحوال البروليتاريا ورسم لها الطريق الى السلطة ، وذلك من خلال (بلترة) البرجوازية . فاننا نجد أن باريتو قد ناضل ليرسم استراتيجية تستطيع بها الصفوات البرجوازية تبادل السلطة وامكانات القوة عازلة الجماهير عن هذه الحركة التاريخية المتفاعلة .

ويتطلب فهم نظرية الصفوة عند باريتو ضرورة التعرف على عدة قضايا أساسية . أولها ، ماهى طبيعة الصفوة ، وملامح تحديدها اللمى ، ثم ماهى الاعتبارات الأساسيةالتى يمكن بالنظر اليها تناول قضية الصفوة ، ثم ماهى خصائص الصفوات ، ثم ما هى خطوط دورة الصفوة فى النموذج النظرى لباريتو ، وسوف نحاول فيما يلى تناول كل من هذه القضايا على حدة .

(أ) فنيما يتعلق بطبيعة الصفوة نجد ان فلفريدو باريتو يحاول أن يقدم تحديدا موضوعيا لمفهوم الصفوة . حينما يذهب الى أن مصطلح الصفوة Elite ليست له أية دلالة أخلاقية أو شرفية . وانما هى تشير ببساطة الى فئة من البشر المتفوقين فى مختلف فروع النشاط الانسانى (١٤٤). ولتحديد هوية الصفوة فى المجتمع الذى يضمها نجد أن باريتو يذهب الى انقسام المجتمع تعسفيا الى فئتين ، الصفوة واللاصفوة non - elite أو الجماهير . وتتكون الصفوة من هؤلاء الذين يتفوقون على الجماهير فى جوانب معينة ، وفى العادة تشكل الصفوة أقلية صغيرة نسبيا ، وتنقسم الصفوة بدورها الى الصفوة الحاكمة ، والصفوة غير الحاكمة . وتضم الصفوة الحاكمة هؤلاء الذين يؤثرون بدرجة مباشرة أو غير مباشرة على تسيير ارادة شئون الحكومة (أما الصفوة غير الحاكمة فهى تلك التى تمتلك امكانية الادارة لكنها لا تشارك فيها بصورة مباشرة أو غير مباشرة) . ومن المهم أن ندرك ان البناء التكوينى للصفوة يتحدد بالنظر الى فئتى الرواسب الأولى والثانية (١٤٥) .

وفى محاولة التحديد الدقيق لمفهوم الصفوة أو لمن هم الصفوة فى المجتمع نجد أن باريتو يؤكد دعنا نفترض أنه يمكن اعطاء درجة لكل فرد فى كل فرع من مجالات النشاط الانسانى . بحيث تعتبر هذه الدرجة مؤشرا لقدرته ، بطريقة تشبه الى حد كبير الدرجات التى تمنح للتلاميذ فى الاختبارات المدرسية . فمثلا المحامى من النموذج ذو الكفاءة العالية سوف يمنح عشر درجات ، فى حين يمنح المحامى الذى لم يستطع الحصول على زبون واحد درجة واحدة ، محتفظين بالدرجة صفر للشخص المعتوه عقليا . سوف نعطى الشخص الذى استاع تأسيس تراكم رأسمالى يصل الى عدة ملايين – بطريقة أمينة أو منحرفة – أيا كان الأمر نحو عشر درجات ، أما الشخص الذى استطاع توفير عدة آلاف فسوف نعطيه ستة درجات ، وبالنسبة للشخص الذى يعيش بالكاد فى اطار بيت فسنعطيه درجة واحدة ، محتفظين بصفر لهؤلاء الذين يستحيل عليهم انجاز ذلك . وبالنسبة للمرأة التى تعمل فى السياسة ، والتى تحاول أن تفتن رجل السلطة لتسيطر عليه وتلعب دورا فى طريقة آدائه لوظيفته ، فاننا سوف نعطيها درجة عالية وليكن ثمانى درجات أو تسع درجات ، أما البغى Strumpet التى تعمل فقط على اشباع شهوات هذا الانسان ، دونما أن تحاول التأثير على ادارته لشئون المجتمع ، فاننا سوف نعطيها صفرا . وبالنسبة للوضيع Rascal الذى يعرف كيف يغافل البشر دونما أن يعرفوا هويته سوف نعطى ثمانية أو تسع درجات أما

بالنسبة للص الجبان الذى يخطف قطعة من الفضة من على منضدة مطعم ويهرب ثم يقع فى أيدى الشرطة فاننا سوف نعطى درجة واحدة (١٤٦) .

ذلك يعنى أننا اذا تصورنا انقسام المجتمع الى عدة مجالات فانه من الممكن أن نميز فى كل من هذه المجالات الصفوات المؤهلة بأفضل العناصر من حيث الفاعلية فى اطار هذا المجال ، وهى الصفوة التى تساهم بقدر كبير فى صياغة تفاعله . هذا الى جانب وجود الصفوات المؤهلة بالعناصر لكنها لاتساهم بشكل مباشر فى صياغة هذا التفاعل . ثم الجماهير العريضة فى هذا المجال ، تلك الجماهير التى ليس أمامها سوى الخضوع لهذه الصفوات الأكثر فاعلية وقدرة . هذا مع الضرورى أن نأخذ فى الاعتبار أنه بغض النظر عن طبيعة المجال ، فان لكل مجال صفوته فمجالات الانحراف لها صفواتها ، ومجالات السواء لها صفواتها أيضا .

(ب) بعد أن انتهينا من تحديد طبيعة الصفوة ، نرى ضرورة التوضيح بأن تناول باريتو لقضية الصفوة قد تم فى ضوء الاعتبارات الأساسية التالية :

١ – يتمثل أول هذه الاعتبارات فى تأثر تناول باريتو لقضية الصفوة بعاملين أساسيين لهما الطابع التاريخى ، العامل الأول يتعلق بتأثير تعاقب صفوات اليمين واليسار على حكم ايطاليا بعد التوحيد ، ثم تناوب هذه الصفوات فى السيطرة على السلطة ، فى مقابل غياب الجماهير – خاصة جماهير الجنوب – عن المشاركة الفعالة – الحقيقة – على نحو ما أشرنا سابقا ، بيحث دفع ذلك باريتو الى التأكيد على دورة الصفوة واغفال الجماهير . أما العامل الثانى فيرجع ايمانه بالقوة كوسيلة أساسية للحفاظ على وحدة المجتمع الايطالى ، الحديث التوحيد ، وان أى تهاون فى التأكيد على وحدة المجتمع ولو بالقوة سوف تكون له آثاره على انهيار بناء المجتمع . ذلك يثير قدر من الشك حول الادعاء القائل بنقل باريتو لنظرية الصفوة عن معاصرة جيتانو موسكا .

٢ – أن دورة الصفوة لها علاقة بطبيعة النموذج البنائى السائد ، فكل المجتمعات سواء كانت مجتمعات الطائفة Caste System أو المجتمعات ذات البناء الطبقى المفتوح تحدث فيها دورة الصفوة . لكن الفارق بينهما يتمثل فى سرعة دورة الصفوات وأيضا فى حجم الآثار التى تنتج عن الدورة . بيد أن باريتو قد اعتقد أنه فى المجتمعات المفتوحة – طبعا – بصورة كاملة ، أى المجتمعات التى يسودها حراك اجتماعى كامل ، نجد أن مراكز الصفوة ترتبط عادة بالقدرات أو الطاقات المتفوقة للأفراد . أعنى أن

الصفوة فى هذه الحالة تتكون من أكثر البشر قدرة على الحكم والسيطرة فى المجال المحدد . بيد أن هناك حقيقة واقعية تتمثل فى أن العقبات التى قد تظهر فى المجتمع مثل الثروة الموروثة ، والارتباطات العائلية وكل العوامل الشبيهة هى التى من شأنها أن تعوق دورة الأفراد لاحتلال مختلف مراتب أو درجات المجتمع . ومن ثم نجد أن المسافة بين هؤلاء الذين يحملون لقب صفوة من ناحية ، وبين هؤلاء الذين يمتلكون القدرات العالية تميل الى الاتساع بدرجة أكبر أو أقل (١٤٧) ، وهو الأمر الذى يحدث عادة فى المجتمعات الانتقالية أو المجتمعات التى تعيش فى حالة من إزدواج المعايير .

٣ – أن التجسيد الواقعى للأفكار التحليلية التى طرحها باريتو تكشف أنه ليست هناك صفوات مؤهلة برواسب معينة بينا أخرى مؤهلة برواسب مختلفة ، فذلك أمر قد يصدق على المستوى التجريدى . بينما تشهد التفاعلات الواقعية على أن الصفوة تمر بثلاثة حالات ، الحالة الأولى تكون فيها رواسب الصفوة أقوى ماتكون ، هذه الحالة هى حالة من فرض الاستقرار الاجتماعى أو هى حالة (الأسود) فى السياسة أو (المحافظون) فى الاقتصاد . أما الحالة الثانية التى تنتقل اليها الصفوة ، فهى الحالة التى تحاول الصفوة بواسطتها الامساك بمقاليد القوة سواء بأساليب الخداع أو عن طريق ابتكار نظريات وأفكار (مشتقات) تؤكد فاعليتها . فى الحالة الأولى تمتلك الصفوة فئة الرواسب الثانية ، والتى تؤكد على استمرار التجمع والاستقرار ، وفى الحالة الثانية تسود مجموعة رواسب الفئة الأولى ، التى تؤكد على تأكيد الترابطات ، والمغامرة والمخاطرة والتجريب . وبين الحالتين تسود حالة انتقالية تختلط فيها رواسب الحالتين معا – وان كانت هذه الحالة الانتقالية هى الحالة الأصل ، بينما الحالات المستقطبة ، التى تكون فيها رواسب الصفوة نقية ، هى التى تسود الفترات الاستثنائية فى تاريخ المجتمعات – حيث تكون الصفوة فى هذه المرحلة خليط من الأسود والثعالب ، أى خليطا من البشر الخياليين الذين يميلون الى التجديد – الأسود – لتأكيد استقرار وتوازن البناء الاجتماعى . غير انه حينما تحدث بعض العوائق فى دورة الصفوة تمنعها من تحقيق هذا الخليط الممتاز بين الحالتين ، فاننا نواجه بأحد احتمالين ، فاما أن ينهار النظام الاجتماعى ويميل الى حالة من المحافظة الشديدة الثبات حيث البيروقراطية المتضخمة والعاجزة عن التكيف أو تأسيس أى تجديد . أما الاحتمال الثانى فهو الانحدار الى حالة من حياة المجتمع فى ظل نظم اجتماعية تضم كثيرا من البلاغيين المنازعين والعاجزين عن الفعل القوى والصارم . واذا حدث ذلك ، فان المحكومين سوف

يكونوا قادرين على الاطاحة بحكامهم ، لكى تصعد صفوة جديدة وقادرة على تأسيس نظام اجتماعى أكثر فعالية (١٤٨) .

٤ – أنه الى جانب دورة حالات الصفوة الواحدة ، هناك دورة للصفوات ذاتها . وفى هذا الصدد يمتلك كل مجتمع بصورة دائمة نموذجين للصفوة ، نمط المجددون أو المضاربون Speculator ، ونمط المحافظون Rentier . وحينما يمتلك المجتمع نموذجى الصفوة هنين ، فانهما يتناوبا حكم المجتمع بعيدا عن مشاركة الجماهير . وحينما يكون النموذج الأول (المجددون أو المضاربون) ، هو المسيطر على الحكومة أو هو النحط الذى يسود الحكومات الديمقراطية أو حكومات الصفوات الثرية ، حيث توضح المجموعة الأولى ميلا نحو تأسيس الارتباطات الجديدة . ومن خلال احتلالها للسلطة فانها عادة تدعم الرفاهية الاقتصادية والاجتماعية ، وهم عادة مايخدعون الجماهير المحكومة من خلال الوعود والآليات الانسانية والديموقراطية العديدة ، وما الى ذلك .

ومن الطبيعى أن يؤدى ذلك الى الفساد ونصب المكائد التى تؤدى إن عاجلا أو آجلا الى نتائج مهلكة . وهو مايدفع الى التجاوز الحتمى للطبقة العليا بواسطة النموذج المضاد ، المحافظون . وبهذه الطريقة فان تبدل هذه النماذج يحدث فى مختلف الأزمنة والمجتمعات ، ومازال مستمر حتى الآن . وحسب ما يذهب باريتو ، فان غالبية الحكومات الديموقراطية فى فترة ماقبل الحرب كانت تتكون من المضاربين الفاسدين ، ومدبرى المؤمرات البرلمانيين . حيث امتلكوا القدرة على تأسيس الارتباطات ، برغم فسادهم البين خلال هذه الفترة . غير أنهم كانوا فى ذات الوقت ذوى قلوب رحيمة وذوى نزعات انسانية ، حتى أنه تم تجاوزهم بواسطة المحافظون (وبغض النظر عن مميزات مثل هذا الموقف أو مساوئه) فان الأحداث أكدت الى حد كبير توقعات باريتو (١٤٩) .

غير أنه ينبغى أن نأخذ فى الاعتبار أن دورة الصفوة ودورة الصفوات ليست لها مداراتها المتباينة ، وانما نجدها تدور فى مدار واحد . وفى هذا الصدد نجد أن الصفوة قوية خلال الحالات الثلاث اذا هى حافظت على رواسبها . بيد أنها حينما تدخل فى المرحلة الثانية – وهى المرحلة التى تشهد انهيار هذه الرواسب – فانها بذلك تمهد للانتقال الى المرحلة الثالثة حيث محاولة جذب عناصر من الطبقات الدنيا مزودة برواسب جديدة ، تعمل على دعم قوتها بها . غير أنه أحيانا ماتحدث عوائق تؤخر وصول الدعم من أسفل أو تمنعه تماما ، هنا تصل الصفوة الى أدنى مستوياتها ضعفا ، بحيث تشكل

بذلك هدفا لقفز الصفوة المتربصة على السلطة والاطاحة بالصفوة الضعيفة . ومن ثم تكتمل دورة الصفوات لكى تبدأ دورة حالات الصفوة من جديد .

٥ – ن الصفوة عند باريتو ليست الصفوة السياسية فقط – حيث أكدت معظم التحليلات النظرية التى تناولت قضية الصفوة على هذا الجانب فقط – ولكن هناك أيضا الصفوة الاقتصادية . واذا كانت دورة الصفوة السياسية بين الثعالب والأسود ، فان دورة الصفوة الاقتصادية تكون عادة بين المضاربون والمحافظون . ومن الطبيعى أن تدور الدائرتين فى مدارات متوازية . حيث تتداخل المراحل السياسية للدورة بدقة مع المراحل الاقتصادية ، ومن ثم تترابط الصفوات . فمثلا الصفوة التى تدعم تأسيس الارتباطات Combina-tion Type تضم بداخلها المضاربون Speculators على الجناح الاقتصادى والثعالب Foxes على الجناح السياسى(١٥٠) . فى حين تتداخل مرحلة الأسود Lions على الصعيد السياسى مع صفوة المحافظون أو المدخرون على الصعيد الاقتصادى وذلك فى اصار صفوة الحفاظ على استمرار التجمع . ويرتبط بذلك صفوة ثالثة وموازية ، وهى الصفوة الثقافية ، حيث يتوازى مع ثعالب السياسة ومضاربى الاقتصاد مجموعة المثقفين الذين لديهم ايمان كامل بالنظرية العلمية ، أو الذين يتخذون الشك مدخلا لادراك الحقيقة . وذلك فى مقابل توازى المؤمنون بالخبرة الدينية ، الذين يتخذون الايمان مدخلا الى الحقيقة ، مع أسود السياسة ومحافظوا الأقتصاد ، وهو مايعنى طرح باريتو لمفهوم تعددية الصفوة بصورة مبكرة للغاية .

(ج) أما القضية الثالثة والتى تتعلق بخصائص الصفوة فأننا نجد أنه اذا كانت خصائص الصفوة هى ذاتها خصائص الجماهير ، فاننا نجد أن الرواسب عند الصفوات أقوى منها عند الجماهير . وهو مايفصل الصفوة عن جماهيرها . هذا الى جانب أن الصفوات تختلف عن بعضها بالنظر الى طبيعة وقوة الرواسب التى لديها . وفى هذا الصدد سوف نعرض لثلاثة قضايا أساسية . الأولى تتعلق بأنماط الصفوة بالنظر الى خصائص كل نمط ، ثم نعرض الي الوظيفة الاجتماعية للصفوات بالنظر الى خصائص كل منها ، ثم قضية اختلاط الصفوات .

١ – وفيما يتعلق بالقضية الأولى نجد أن الصفوة التى تعكس رواسب الفئة الأولى ، هى عادة الصفوة التى ينتمى أفرادها الى الثعالب فى السياسة والمضاربون فى الاقتصاد ، والشك أو الايمان بالفكر العلمى فى نطاق الثقافة والفكر ، ومن الطبيعى أن

تمتلك هذه الفئة من الصفوة عدة خصائص أساسية . فرواسبها تفرض عليها أن تجبر البشر على بناء النسق أو النظام ، أعنى تأسيس مجموعة الارتباطات المنطقية الزائفة بين الأفكار . هذه الفئة عادة ماتقودها رواسبها الى محاولة السيطرة على مختلف العناصر المكونة للخبرة الواقعية والتحكم فيها . أيضا تدفع رواسب هذه الفئة أفرادها للمشاركة فى الاحتكارات الكبرى ، اذ نجدها تدمج المشروعات ، وتربط فيما بينها ، وتعيد الربط بينها وبين مجموعة ثالثة من المشروعات . على الجانب السياسى نمثل لهذه الفئة بهؤلاء الذين أطلق عليهم ميكيافيلى الثعالب ، القادرون دائما على التجربة والتجريب ، والانحراف أو الابتعاد عن ماهو سائد .

هذه الفئة تتسم عادة بعدة خصائص أساسية ذات طبيعة أخلاقية . منها افتقادها الولاء للمبادئ . أو لتلك القيم المحافظة التى تؤكد على الاستقرار الاجتماعى (١٥١) . وفى هذا الصدد يؤكد تالكوت بارسونز أن الأشخاص الذين تقوى لديهم رواسب الترابط عادة مايهتمون بالحاضر على حساب المستقبل . يؤكدون على ماهو حالى أفضل مما هو مرجأ فى المستقبل البعيد ، يؤكدون على السلع والاشباعات المادية وليست المثالية أو المعنوية ، يؤمنون بتفوق المصالح الفردية على مصالح الجماعة ، أيا كانت طبيعة الجماعة ، سواء كانت العائلة أو المجتمع المحلى أو حتى الدولة . يتميز أفراد هذه المجموعة أيضا بالميل الى التجديد والابداع ، وتأسيس التصورات ، والتوقعات ، وعادة ماتكون لديهم ميول قوية لتحقيق أهدافهم وذلك لامتلاكهم المهارة والدهاء (١٥٢) .

٢ – وتضم المجموعة الثانية الصفوة التى تعكس رواسب الفئة الثانية ، وهى الفئة التى تؤكد على استمرار التجمعات Persistence of aggregates . وتضم هذه المجموعة تلك الصفوة التى تؤكد على قوى المحافظة على الوضع القائم ، ويمثلها البشر الذين تظهر لديهم رواسب الفئة الثانية قوية ، حيث التأكيد على دوام التجمعات . وعادة مايتميز البشر المكونين لهذه الصفوة بمشاعر قوية نحو العائلة ، القبيلة ، المدينة أو الأمة . وهم يلعبون دورا رئيسيا فى تأكيد الوحدة والتضامن الطبقى ، ولديهم احساس كبير بالوطنية، وأيضا يسود لديهم شعور بالحماس الدينى ، وهم لايخافون من استخدام القوة متى فرضت الضرورة ذلك ، وهؤلاء نمثل لهم بالأسود عند ميكيافيلى (١٥٣) .

وتتميز هذه الصفوة من الناحية الأخلاقية بالمحافظة على استقرار الترابطات أو التجمعات متى تشكلت . وعادة مايتميز أعضاؤها بالثبات على مواقفهم ، والنزعة

المباشرة لتناول الأحداث ، وأيضا الارادة القوية للموافقة على الصراع الصريح متى فرضت الظروف ذلك . ولديها ميل لتجاوز العقبات ، ومن ثم استخدام القوة ، يؤمنون بالتقاليد أكثر من ايمانهم بالتجديد ، يعزفون فى العادة عن الحيل والمكر والدهاء فى معالجتهم للمسائل . بالاضافة الى ذلك فهم فى العادة يخضعون مصالحهم لمصالح الجماعة ، أيا كانت طبيعة الجماعة التى ينتمون اليها (١٥٤) .

٣ – أنه بالنظر الى هذه الخصائص المنسوبة لكل من جماعات الصفوة ، فاننا نجد أنها تقوم بوظائف مختلفة بالنسبة للمجتمع . حيث تؤدى مجموعتى الصفوة وظائف ذات نفع مختلف بالنسبة للمجتمع . فجماعة (المضاربون فى الاقتصاد والثعالب فى السياسة) عادة مايكونون مسئولين أساسا عن التغير ، وأيضا عن التقدم الاجتماعى والاقتصادى . أما جماعة (المحافظون فى الاقتصاد والأسود فى السياسة) فعادة مانجدهم بدلا من ذلك يشكلون عنصرا قويا فى الاستقرار اجتماعى ، وعادة مايشكلون مواجهات قوية لمخاطر (دخول المضاربون) فى مغامرات ذات طبيعة طفرية وخطيرة . وعادة مايظل المجتمع اذى يسيطر عليه (المحافظون) ثابتا ومستقرا ، أما المجتمع الذى يسيطر فيه (المضاربون) فعادة مايكون مجتمعا يفتقد الاستقرار ، ويعيش حالة من اهتزال التوازن ، الذى قد ينهار كلية بفعل عوامل ذات طبيعة عرضية من الخارج أو من الداخل (١٥٥) .

غير أن ذلك قد يعنى أيضا أن تقع أو تؤدى هذه الوظائف فى مرحلتين من حياة الصفوة الواحدة . فمرحلة البناء والتأسيس فى تاريخ أى نظام اجتماعى وسياسى عادة ماتتلوها مرحلة من الاستقرار لاستيعاب التفاعلات التى تمت خلال مرحلة التأسيس هذه . أى أن هذه الوظائف تؤديها صفوتين فى تاريخ المجتمع الواحد . هذه الأفكار نجد نظيرا لها فى أنماط السلطة عند ماكس فيبر ، وهو ماعرضنا له سابقا .

٤ – أن الخصائص التى عرضنا لها لا توجد فى العادة نقية فى الواقع على النحو الذى عرضنا له ، وانما عادة مايحدث تداخل فى خصائص الصفوات فى حالتين . الحالة الأولى ، فى المراحل الانتقالية حيث تحاول الصفوة احتلال مكان صفوة أخرى ، أما الحالة الثانية فهى الحالة التى تدخل فيها الصفوة احدى مراحل ضعف خصائصها ، ومن ثم تحاول دعم خصائصها بأفراد من الطبقات الدنيا . ويحدد هذا الوضع بالتفرقة بين حالتين تمر بهما الصفوة فى هذا الاطار ، حالة تطابق الصفوة مع كفاءتها ، وحالة انفصال طبيعة الصفوة عن كفاءتها أو بعض خصائصها .

ولتوضيح ذلك نجده يؤكد ان جماعة الأثرياء ، والأرستقراطيات التجارية والدينية ، والعسكرية ، يمكن أن تشكل فى البداية عناصر من الصفوة الحاكمة ، وفى بعض الأحيان تشكل كيانها بأكمله . اذ يعتبر المحارب المنتصر ، والتاجر الثرى ، والوافرى الثراء بشرا يشكلون هذه العناصر ، كل فى مجال اهتمامه ، باعتباره يسمو بقدراته على أصحاب القدرات العادية أو المتوسطة . فى مثل هذه الظروف نجد أت مفهوم الصفوة يتصل الى حد كبير بقدراتها الحقيقية . ولكن بمرور الزمن ، تحدث اختلافات واضحة للغاية بين مفهوم وخصائص الصفوة من ناحية وبين قدراتها من ناحية أخرى . فالأرستقراطيات لاتدوم ، ذلك لأن التاريخ هو مقبرة للأرستقراطيات ، ومن ثم تنهار هذه الأرستقراطيات ليس من حيث عددها فقط ، ولكنها تنهار كيفيا أيضا ، بمعنى أنها تبدأ فى افتقاد جوهرها ، وهو مايعنى تضاؤل فى نسب أو مقادير الرواسب التى مكنتها من كسب السلطة والحفاظ عليها . بحيث يفرض عليها ذلك ضرورة أن تستعوض نفسها من العناصر ذات الرواسب القوية من الطبقة الدنيا والتى تحضر معها جوهر ونسب الرواسب الضرورية للحفاظ على الصفوة فى مواقع السلطة والقوة ، ومن ثم فاذا لم يحدث دعما لها من الطبقات الدنيا فان ذلك قد يعتبر أحد الأسباب الرئيسية لاهتزاز التوازن الذى يتمثل فى تراكم العناصر السامية ذات التفوق فى رواسبها فى الطبقات الدنيا ، والعكس صحيح ، تراكم العناصر المتدنية فى الطبقات العليا (١٥٦) .

(د) وفى أعقاب تحديدنا لطبيعة أو ماهية الصفوة ، وخصائصها والاعتبارات الأساسية التى تتناول من خلالها الصفوة ، نعرض الآن لقضية دورة الصفوة باعتبارها قضية مترتبة على القضايا السابقة . ولتوضيح ذلك يؤكد باريتو أن الرواسب تتغير فى المجتمع ككل ، غير أن ذلك يتم ببطئ ، وببطئ أكثر تتغير معظم فئات الرواسب كل فى علاقتها بالأخرى . غير أنه بسبب ضعف حجم الصفوة أو قوة رواسبها ، فان ذلك من شأنه أن يدفع الى ظهور حقيقة تتمثل فى خضوع معظم المجتمعات لعملية مستمرة هى (دورة الصفوة Circulation of the elite) التى يصعد من خلالها بعض الأفراد – الذين يشكلون صفوة – الى مواقع الصفوة ، بينما يهبط آخرون – الذين كانوا يشكلون صفوة أيضا – من مواقع الصفوة الى القاع ، وخلال هذه العملية قد تتغير راديكاليا طبيعة الصفوة فى وقت قصير نسبيا .

ويدرك باريتو هذه العملية باعتبارها ذات طبيعة دائرية أساسا ، وهو يدركها من

خلال ثلاثة مراحل متداخلة نعرض لها فيما يلى :

١ – وتتعلق المرحلة الأولى بمكانة الصفوة الحاكمة كما هى عليه . وتتحدد بداية التحليل من تلك المسلمة العامة التى تذهب الى التأكيد بأن هناك قدرا من التناقض الصبقى حتى أن الحكومة لاتعتبر مجرد ادارة روتينية ولكنها تستهدف الحصول على بعض الوسائل التى تيسر لها امتلاك السلطة والحفاظ عليها . وتنقسم هذه الوسائل بالنسبة لباريتو الى وسيلتين رئيسيتين هما القوة Forcc ، الخداع Ruse . ولاتحتاج القوة الى توضيح ، فهى تعبر عن ممارسة القهر الفيزيقى أو التهديد به فى بعض الظروف الحرجة التى تتطلب ذلك . وذلك كوسيلة للحصول على الولاء والخضوع . بينما يعنى الخداع أسلوبا كاملا يبدأ من البراعة فى الخداع والمناورة التى تخاطب العواطف والمصالح ويصل الى حد الاحتيال الصريح .

ومن الواضح تماما أنه طالما أن فئتى الرواسب منفصلتين عن بعضهما – وهما كذلك الى حد كبير بالنسبة لباريتو – فان البشر الذين يمتلكون رواسب استمرار التجمع سوف يميلون الى استخدام القوة والمخاطبة المباشرة لعواطف التجمع الذى يشاركون فيه . بينما سوف يستخدم البشر ذوى رواسب الترابط الخداع أساسا ، حيث يعملون على استغلال المصالح والعواطف التى لايشاركون فيها .

وحينئذ تتمثل الدورة فى تبدل سيطرة فئتى الرواسب على الصفوة الحاكمة . ويبدأ باريتو بملاحظة أن الصفوة الحاكمة التى لاتكون راغبة أو تكون عاجزة عن استخدام القوة للحفاظ على مراكزها ، تطرح نفسها فريسة سهلة لجماعة صغيرة ، جيدة التنظيم وذات قيادة فعالة ، ولديها استعداد لاستخدام القوة لتحقيق غاياتها ، وهو يسمى هؤلاء البشر بالأسود . وتبدأ الدورة بصعود هذه الجماعة الى سدة السلطة من خلال استخدام القوة أو التهديد بها ، وعادة مانجد أن هؤلاء البشر أقوياء فيما يتعلق برواسب استمرار التجمعات التى لديهم ، هذا بالاضافة الى أن لديهم ايمان عميق يشتركون فيه مع أتباعهم .

غير أن هذه الخصائص ، برغم فعاليتها ، فى مساعدة حاملها على الصعود والامساك بالسلطة ، إلا أنها ليست فعالة بنفس القدر فى تمكين الجماعة الحاكمة فى الحفاظ على السلطة والابقاء عليها تحت سيطرتها . حيث أنه اذا كان بامكانها استخدام

القوة بفاعلية أكثر بالنسبة لمن لها سيطرة عليهم أو الداخلين فى اطارها . غير أن استخدام القوة لن تكون له هذه الفاعلية لمن هم ليسوا اتباعا أو ضد المواطنين الآخرين خلال فترة أو عملية فرض النظام فى المجتمع أثناء وجود هذه الصفوة فى السلطة . وهنا يظهر لديها ميل قوى لاحياء غرائز الترابطات Combinations ، أى القدرة على الخداع . ومما لا شك فيه أن هذه الظروف تساعد على تغير دورة الصفوة ، حيث يؤدى الاعتماد على أساليب المكر والخداع كوسيلة للحكم ، وأداة لفرض النظام والسيطرة ، الى ظهور فئة من البشر فى اطار الصفوة الحاكمة محنكون فى عمليات المكر والخداع ، غير أنهم لم يشاركوا فى الايمان الذى شركت فيه الصفوة الأولى المؤسسة للنظام . ومن ثم نجد أن رواسب استمرار التجمع تبدأ فى الخفوف فى بناء الصفوة الحاكمة ، وذلك بالنظر الى حقيقة أن ضرورات الموقف الذى تعيش فى اطاره تتطلب بدرجة أقل الخصائص أو الرواسب المرتبطة بها – رواسب استمرار التجمع . وأيضا لأن هذه الرواسب قد خفت حدتها بسبب الأشخاص الذين صعدوا اليها من أسفل ودخلوا الى بناء الصفوة بسبب ضعف الأخيرة ، برغم اختلاف رواسبهم عنها . ومن ثم فاذا نشأ عداء أو تناقض مع قوى خارجية أو داخلية فاننا نجد أن الصفوة الحاكمة تلجأ الى التعامل معه من خلال المكر والخداع بدلا من تجاوزه باستخدام القوة . ومن ثم يظهر اتجاه مؤداه أن عمليات الحكم تصبح مكلفة بدرجة أكثر فأكثر ، وذلك من طبيعته أن يفرض عبئا على الامكانيات التى يعتقد أنها ملائمة للبحث عن أساليب لا تتضمن استخدام القوة لفرض النظام .

وأخيرا فإنه ارتباطا بهذه العناصر ، تتجلى حقيقة أن مجرد الامساك بالسلطة والسيطرة عليها بصورة سهلة ، فان ذلك من شأنه أن يضيف رواسب الاستمرار فى بناء الصفوة الحاكمة . فاذا كانت السلطة – وهى الهدف المباشر – قد تم الحصول عليها ، فان الأهداف العليا التى كانت قريبة ، تصبح بعيدة ، وبالتالى يركن أعضاء الصفوة الى الدعة ، ويجنون ثمار انتصارهم . ذلك أمر حقيقى طالما أنه يحدث فى الغالب ارتباطا بين عمليات اضعاف رواسب الاستمرار من ناحية ، وازدهار الثمار النهائية للحضارة من ناحية أخرى ، وهى المسألة التى من الطبيعى أن نجد صدى لها بصفة خاصة لدى الصفوة الحاكمة .

بالاضافة الى ذلك تقع نفس العملية ، لكنها معكوسة ، على جانب المحكومين . فمن ناحية ، نجد أن العواطف التى على أساسها احتلت الصفوة الحاكمة ، مواقع السلطة يتم ازدراؤها وذلك بسبب تخفيف dilution رواسب الاستمرار ، وأيضا تحول الخداع وتعمقه بحيث أصبح نوعا من الاحتيال . ومن ناحية أخرى يؤدى تغير شروط دورة الصفوة الى تراكم البشر القادرين فى الطبقات الدنيا الذين لديهم رواسب استمرار التجمع قوية ، والذين يشاركون فى ذات العواطف ، ولديهم رغبة قوية فى استخدام القوة . ويعتمد مدى اعتبار الموقف غير مستقر الى حد كبير ، بالقدر الذى تكون فيه الصفوة قادرة على حرمان المحكومين من قياداتهم . فاذا كانت الصفوة مفتوحة وأباحت صعود هؤلاء البشر اليها ، فان الأمر قد يستمر على هذا النحو لوقت طويل جدا . غير أن تعرض الصفوة لهذا التعديل ، قد يؤدى الى زيادة سيطرة البشر الذين يضمون رواسب الترابط بقوة (الثعالب) ، ومن ثم فسوف يؤدى ذلك الى تخفيض امكانية المقاومة بالقوة . ومن ناحية أخرى ، تتزايد احتمالية العداء المزود بالقوة أما من الخارج ، أو من أسفل من الطبقة الدنيا ، وتكون النتيجة هى الاطاحة الحتمية بالصفوة الحاكمة ، ومن ثم بداية دورة جديدة .

٢ – واذا كان ماسبق يمثل الوجه أو المرحلة السياسية فى الدورة ، فانه ارتباطا بهذا الجانب السياسى للدورة يوجد جانب اقتصادى آخر . حيث نجد أن نموذج الصفوة الذى تسود لديه رواسب تأسيس الترابطات (المضاربون) حيث هم القسم الاقتصادى المقابل (للثعالب السياسيون) . حيث يؤدى التغير العام فى طبيعة الصفوة الحاكمة – الذى يلقى بظله على الصفوة غير الحاكمة – الى احتلال قمة السلطة بواسطة فئة المقاولين من هذا النوع ، هؤلاء المقاولون عادة مايكونوا قادرين على تأسيس المشروعات من كل نوع . وتكون النتيجة الحتمية لذلك هو انتشار حالة من الرخاء ، طالما أن هؤلاء البشر يتولون توجيه دفة الأمور الاقتصادية أو سحبها من يد أصحاب العقول التقليدية . ويميل ظهور هذه الفئة الى التطابق مع صعود فئة الثعالب . وذلك لأن السياق الاجتماعى العام يكون ملائما لكلا نموذجى الصفوة . وأيضا بسبب طبيعة العلاقة المتبادلة بين الصفوتين . ومن ناحية أخرى ، فان الحكومة عادة ماتكون لها السلطة الكاملة على الفرص الاقتصادية ، ويمكن أن تعتبر سياساتها وسائل هامة للغاية لفتح الأبواب أمام المضاربين . ومن ناحية تالية ، فان تنامى تكاليف الحكومة يجعل (المضاربين) مرتبطين بالمثل بالثعالب ، ومن ثم فانتشار سيطرة كل منهما تميل الى التطابق . ويمكن القول بأنه

ليس هناك مكان محدد فى النشاطات الاقتصادية البحتة لجماعة الأسود ، طالما أن استخدام القوة كوسيلة للتملك ينقل الفعل من المجال الاقتصادى الى المجال السياسى . غير أن هناك بلا شك نموذج يتميز بانتشار رواسب الاستمرار يسميه باريتو المحافظون Rentieas . وبرغم أنهم ليسوا أفرادا يفضلون استخدام القوة ، فاننا نجدهم تقليديون محافظون يرفضون تجديد المضاربين ، وتكمن أهميتهم الوظيفية فى الاطار الاجتماعى ، فى حقيقة أنهم المدخرون . فى حين أن المضاربون ، برغم كونهم منتجين عظاما فهم مسرفون ، يستغلون المدخرات ، وبالنسبة لدورهم فى دورة الصفوة فهم يعتمدون على تراكم المدخرات . ويؤكد باريتو كثيرا على التمييز بين المضاربين والمحافظين - بين المقاول والمدخر - حيث أن الصراع بينهما قد يصبح فى بعض الأحيان أكثر أهمية من الصراع الذى تؤكد عليه النظرية التقليدية والذى يدور حول الخلاف بين العمل ورأس المال .

ويتميز النموذج المحافظ بالميل الى الادخار ، وذلك نتيجة للحساب الاقتصادى الرشيد ، وأيضا بسبب القوى غير المنطقية الكائنة بداخله . وهم كفئة ، حسبما يذهب باريتو ، يعيشون من أجل مصالحهم ، وتكمن نقطة الضعف الهائلة فيهم ، فى أنه من الممكن استغلالهم من قبل المضاربين . ومن ثم فطالما أن دورة الصفوة تتجه الى مرحلة المضاربة ، فان الخطر الذى يبرز هو احتمالية استنزاف المدخرات ، وعادة مايتخذ ذلك على الجانب السياسى شكل ضعف نظام حكم (الثعالب) عن نفسه ضد القوة التى تفرض حدا لمرحلة الترابطات فى الدورة . أما على الجانب الاقتصادى فان هذه النهاية توضع بسبب عدم قدرة المضاربين على الادخار . وعلى ذلك فمن الممكن أن يتصل العنصران بقوة ببعضهما لبعض . وبرغم أن المحافظين يتصفون بصورة عامة بالجبن والقابلية للاستغلال ، إلا أنه من الممكن فى ظروف معينة اثارتهم ودفعهم الى النشاط السياسى ، بحيث يشكلون من أنفسهم عنصرا هاما يدعم (الأسود) السياسيون ضد (الثعالب) .

٣ - ويتمثل الوجه الثالث للدورة فى الوجه الثقافى والأيديولوجى أو مايعرف بالمشتقات ، حيث تشهد هذه المرحلة أو هذا الوجه ، ظهور الأيديولوجيات التى تمهد السبيل الى العناصر الهامة فى التفسير النظرى . ويمكن النظر الى هذه الأيديولوجيات ، أو نظريات التحليل السابق من زاويتين ، الداخلية والخارجية . حيث

تتصل الأولى بمدى اتصال الأيديولوجيات أو النظريات بالحقائق ، أما الثانية فتهتم بالقوى المسئولة عن انتاجها ، والموافقة عليها فى طار سياق اجتماعى بعينه .

وبرغم أن كل النظريات المعنية ليست علمية إلا أنه يمكن التمييز الواضح بين نموذجين أساسيين من هذه النظريات ، حيث تتسم نظريات النموذج الأول بالطبيعة غير العلمية الصريحة أو الواضحة . وهذه النظريات تميل عادة الى التقليل من قيمة وأهمية العلم الوصفى لصالح ذوات entities تعلو على ذلك (كالحدس) ، (الخبرة الدينية) (المنطق) ، (العلم اللدن) .. الخ . ودائما مايكون متضمنا فى اطار ذلك نطاقا أعلى متخلفا أو مفترضا ، يختلف عن عالم الحقيقة التجريبية . أما المبادئ التى تدعمها هذه النظريات ، فهى تلك المبادئ التى تفترض شيئا أعلى من الحقائق ، وليس العكس ، كما هى الحال بالنسبة للعلم . ومن ناحية أخرى ، نجد أن النموذج الآخر من النظريات ، برغم أنها نظريات لم تكتسب الشرعية العلمية ، كالنظريات العلمية الزائفة ، فانها تحاول أن تماثل نفسها قدر الامكان بالعمل ، حيث تعمل على دعم سلطة العقل ، وكل مايمكن أن يصبح نواتا حقيقية . وهى تتضمن أيضا تشهيرا كاملا بنظريات النموذج الأول ، ومن ثم نجد أن باريتو يتحدث عن بعض الأزمنة ، حيثما تسود النظريات الأولى ، باعتبارها (أزمنة الايمان Faith) ، بينما تميز سيادة النظريات الأخيرة عصور (الشك Skeptic sm) .

ومن وجهة النظر الخارجية نجد أن هذين النموذجين من النظريات يرتبطان ، بقدر ما برواسب الاستمرار ، وأيضا برواسب تأسيس الترابطات . وبطبيعة الحال ، بالعواطف المتصلة بهذه الرواسب ، اذ تعتبر الفترة التى يسود فيها (الثعالب) أو (المضاربون) فترة تتميز بالشك ، بينما عصر (الأسود) (المحافظون) عصرا يتميز بالايمان . ذلك يقدم المفتاح الأساسى للتفسير النظرى للدورة العامة ، اذ يوضح التمييز بين نموذجى النظريات أن فئتى الرواسب التى ترتبط بها لا تقع على نفس المستوى التحليلى . وانما تتحدد أساسا بواسطة حضور أو غياب خصائص معينة ، كالايمان فيما يتعلق بواقعية بعض الذوات غير التجريبية على سبيل المثال . وفى هذا الاطار تعتبر الغايات المثالية هى العنصر الرئيسى – على الأقل – فى رواسب استمرار التجمعات ، حيث غالبا ماتفترض الطبيعة الترنسدنتالية لهذه الغايات . ومن ثم يعتقد أن هذه الغايات المثالية ، تمارس نوعا من التنظيم على السلوك ، ويرتبط بذلك أن تتجلى

نفس العواطف ، التى تتجلى فى مثل هذه الغايات المثالية ، فى قدر كبير من الطقوس التى تنجز بالنظر الى دوافع – تتجاوزالدوافع النفعية – تتعلق بالايمان أساسا .

وفى مقابل ذلك ، فان سيادة غريزة الترابطات ، من ناحية أخرى ، نمثل الى حد كبير حالة تشهد على غياب الضبط الفعال الذى يمكن أن تمارسه هذه الغايات المثالية . أو العناصر القيمية على السلوك . وهنا نجد أن تركيز الانتباه عادة مايكون على ماهو حاضر ومباشر أكثر من التركيز على ماهو نهائى ، أو مستقبلى ، أعنى التركيز على اشباع الشهوات والسعى من أجل الثروة والسلطة (١٥٧) .

ذلك يعنى أننا فى مواجهة دورة معقدة للصفوة تتسم بالملامح الرئيسية التالية :

(أ) أن هناك صفوتين على المستوى السياسى ، احداهما مزودة برواسب القوة – رواسب استمرار التجمعات – من الفئة الثانية للرواسب . وأنها صفوة تعكس نمط شخصية الأسود الذين تحدث عنهم ميكيافيلى ، وهم عادة تقليديون ، مؤمنون ، حاملى قيم يعملون دائما على استقرار النسق الاجتماعى .

(ب) ذلك فى مقابل الثعالب – الذين حدد أوضاعهم ميكيافيلى أيضا – وهم المزودين برواسب الترابطات ، من الفئة الأولى ، وهم يمثلون الصفوة الدينامية فى تصور باريتو للصفوات . وهم عادة مخادعون ، يمارسون امتلاكهم للسلطة والحفاظ بها على أساس من المكر والخداع ، شكيون ، رافضون التقاليد ، مؤمنون بالعلم ، وبالاشباع الحالى والحاضر .

(ج) أن الانتقال من الصفوة الأولى الى الثانية عادة مايكون سببه ضعف رواسب الصفوة ، ومن ثم اذا هى عجزت عن جذب أعضاء من الطبقة الدنيا لديهم رواسب قوية ، فانها تجد نفسها تعمل برواسب غير رواسبها ، ومن ثم تجد نفسها وقد تحولت الى ممارسات الثعالب ، وبذلك تصبح فريسة سهلة لصفوة أسود قوية برواسبها وقيادتها .

(د) أنه يرتبط بذلك ، دورة أخرى أو مناظرة للصفوة ولكن فى المجال الاقتصادى ، حيث المحافظون مدخرون ، متقشفون يعملون على استقرار النظام الاقتصادى ، وهم هنا يناظرون أسود السياسة ، ويحتاجهم الأخرون . وذلك فى مقابل المضاربون أو المقاولون ، الذين يستغلون مدخرات المحافظين فى تأسيس المشروعات واشاعة حالة من البذخ ، لكن افلاسهم يقود الى ضرورة تجاوزهم من قبل صفوة اقتصادية جديدة .

(هـ) أن كل من هذه الصفوات لديها أيديولوجياتها أو نظرياتها أو لنقل مشتقاتها . فالأسود عادة مايؤمنون بالنظريات التى تركز على الحدس ، الخبرة الدينية ، والايمان العميق بذوات غير واقعية ، ولديهم أيضا ايمان بالمثل والغايات العليا التى توجه سلوكهم . أما الثعالب ، فلديهم ايمان بالنظريات العلمية ، الشك مدخلهم الى ادراك الحقيقة ، تنتفى لديهم المثل العليا التى توجه سلوكياتهم الواقعية ، ويوضح الشكل التالى دورة الصفوة بأقسامها الأساسية على مختلف المستويات الاجتماعية .

خامسا : النسق الاجتماعى بين التوازن والتغير .

تكشف دراسة أفكار باريتو عن تغير أو عدم ثبات الظواهر الاجتماعية العديدة ، عن تطويره لمجموعة من النظريات الدائرية فيما يتعلق بعديد من العمليات الاجتماعية . ومن الواضح أن التطور الخطى Linear ظل غريبا عليه فيما يتعلق بالتغير الاجتماعى ، فقد أوضح فى أماكن كثيرة من كتاباته زيف الاتجاهات أو القوانين التاريخية المتعلقة بالتطور . بالاضافة الى ذلك فقد أبدى سخريته من النظريات التطورية التى تؤكد على مراحل محددة للتقدم . وهو يذهب الى أن ما هو حقيقى فى التاريخ يتمثل فى تلك التقلبات أو التأرجحات التى تمتد لفترات زمنية قد تطول أو تقصر ، والتى تختلف من حيث مدى التغيرات التى تفرضها أيضا ، اذ لم يرى باريتو أى دليل يؤكد على وجود تطور دائم ومستمر للمجتمع أو النظم الاجتماعية حسب خطوط محددة (١٥٨) .

ويكشف البحث فى نظرية باريتو عن التغير الاجتماعى أن نظريته لا تنفصل كثيرا عن أفكاره النظرية فيما يتعلق بتوازن النسق الاجتماعى وتأكيد استقراره . بل ان التحليل الصحيح لأفكار فلفريدو باريتو تكشف أن ماقدمه فى الأساس هو نظرية عن التغير الاجتماعى . غير أننا اذا تفحصنا أفكار باريتو فيما يتعلق بالتغير الاجتماعى فاننا سوف نجد أن هناك عدة حقائق بارزة فيما يتعلق بتصوره للتغير الاجتماعى . نعرض لها فيما يلى :

(أ) وتتمثل الحقيقة الأولى فى استناد نظريته فى لتغير الاجتماعى ، الى مفهوم الرواسب . ومن الطبيعى أنه اذا كانت الرواسب تلعب دورا أساسيا فى صياغة التفاعل الاجتماعى القائم فى المجتمع ، فانه من المنطقى أن يكون لها دورها الواضح فى تأسيس التغير الاجتماعى . ويتحدد دور الرواسب فى التغير الاجتماعى ، من خلال بعدين أساسيين ، الأول يتمثل فى خفوت فاعلية الصفوة الحاكمة ، مما يجعلها فى بعض المراحل التاريخية صفوة بغير رواسب ، ومن ثم تجد نفسها فريسة سهلة لصفوة ذات رواسب

دورة الصفوة فى إطار النظام

المرحلة الأولى من الدورة

قوية تصعد اليها من القاع . اذا فلحظة التغير تقع فى اطار النسق النظرى لباريتو ، حينما تكون هناك صفوتان تشتركان فى ذات الرواسب . احداها تتولى مقاليد السلطة ، لكن ضعفت لديها رواسب الحكم ، والثانية لاتمسك بمقاليد السلطة ، ومع ذلك هى تمتلك رواسب الصفوة متأججة لديها ، بما يجعل تجاوز الصفوة الحاكمة انجازا سهلا ، بل وحطلبا بنائيا .

(ب) أما البعد الثانى للتغير ، فيتعلق بدورة الصفوة ، فالتغير يحدث فى اطار الصفوات . إذ تتناوب السيطرة على المجتمع صفوتان على مايذهب باريتو ، صفوة (الثعالب) أو (المضاربون) وهى صفوة مغامرة تفضل المخاطرة أو تأسيس المشروعات والترابطات الجديدة . غير أنه بسبب ضعف الرواسب لديها تتخلق حالة تعقبها فيها صفوة الأسود ، المحافظون التقليديون ، الذين يؤكدون دائما على الاستقرار والتقاليد والذين تتيح سيطرتهم على السلطة مسألتين : الأولى ، التهيئة لفترة يأتى بعدها المضاربون والثعالب ، يعنى أنه على الناحية الاقتصادية ، تحتاج المضاربة والمشروعات الجديدة الى المدخرات التى يكون المحافظون قد وفروها ، ليأتى المضاربون ونمط المقاولون كى يؤسسوا المشروعات ناشرين بذلك حالة من الرخاء . أما المسألة الثانية فتتصل بجوهر التنظيم الاجتماعى ، فالتجديدات التى حققها الثعالب والمضاربون تحتاج الى فترة لاستيعاب نتاجها فى البنية الاجتماعية ، حتي تدعم بذلك قوتها على الاستيعاب ، وتكون بذلك مؤهلة للدخول فى فترة جديدة من المخاطرة والتجديد والتغير . بحيث نجد أنه فى كل مرة يحدث تجديد ، ثم يستوعب ، ثم تجديد آخر فاستيعاب ، وهكذا بما يعنى تضخم الحجم الاجتماعى للمجتمع نتيجة للاضافات التدريجية التى تضاف اليه من خلال التغير .

(ج) أن التغير عند باريتو يضم نمطى التغير ، التغير التدريجى والذى نرى مظاهره فى خفوت كثافة وعمق رواسب الصفوة الحاكمة من ناحية ، وهو تغير على الجانب السالب فى مقابل ارتفاع كثافة هذه الرواسب لدى الصفوة غير الحاكمة ، ولكن على الجانب الموجب . وحاصل طرح كثافة الرواسب على الجانبين هو الذى يحدد طبيعة وحجم التغير المتوقع . فكلما كان الفارق بين خفة الرواسب لدى الصفوة الحاكمة ، وارتفاع كثافتها عند الصفوة المحكومة ضيئلا ، كلما توقعنا درجة معتدلة من التغير بسبب اباحة الصفوة الحاكمة لأفراد من الطبقات الدنيا للصعود اليها لدعم رواسبها كى تظل قوية . أما اذا

توقفت عن هذا الاجراء ، فانها بذلك تترك الباب مفتوحا لاتساع الهوة ومن ثم امكانية أن يقع تغيرا ثوريا عنيفا فى بناء المجتمع .

أما التغير الثورى فيقع حينما تكون الصفوة الحاكمة واعية بدعم نفسها عن طريق استيعاب فئة الرواسب الأولى (الترابطات) أعنى قبول الأفراد الذين يمتلكون هذه الرواسب ، والذين لديهم الامكانية على الحكم ، فاننا نجد أن الطبقة المحكومة تظل كما هى خاضعة ليس فقط بسبب افتقادها لعناصرها ولكن بالنظر الى حقيقة أنه برغم كونها لديها أفراد مزودين بغرائز الرابطات (التجديد أو المخاطرة) فان أعمال هذه الرواسب عادة ما تبتعد عن مجال السياسة ، ومن ثم يتركز أساسا فى الفن والتجارة ، وهى مجالات منفصلة عن السياسة . مثل هذا الظرف يساعد على تخلق الاستقرار فى المجتمع . فهو يساعد الطبقة الحاكمة ، لأنه يحرم الطبقة المحكومة من قيادتها – التى صعدت الى أعلى فى فترة سابقة – غير أنه على المدى الطويل نجد ان الاختلاف فى المزاج أو الطباع بين الصفوة الحاكمة والصفوة المحكومة يميل لأن يتزايد ويبرر . ومن ثم تميل غرائز الترابط الى الانتشار لدى الطبقة الحاكمة ، فى حين تنتشر غرائز استمرار الجماعة لدى الصفوة المحكومة . وحينما تصبح الاختلافات كبيرة بما فيه الكفاية فان الثورة تقع ، وتلك هى نظرية باريتو فى الثورة . وهى النظرية التى تستند الى الرواسب والعواطف والمزاج السائد ، فهو يؤكد لنا أن هذه القاعدة العامة يمكن أن تطبق على مستوى الدولة ، فسوف ينتصر هؤلاء الذين لم يفقدوا امكانية استخدام القوة ، على هؤلاء الذين افتقدوا هذه المقدرة . وعلى المدى الطويل ، فان هذا الموقف الأخير سوف يقود المجتمع الى الانهيار . وبصفة عامة ، فان الاستبدال المثالى لاستخدام القوة بواسطة القانون غير المسلح ، يعتبر نوعا من الخيال المحزن .

(د) ويتعلق البعد الرابع بحدود التغير الاجتماعى كما يراه باريتو ، فهو تغير يستهدف بالأساس استرجاع التوازن الذى اهتز فى بناء النسق ، وخلق وضع جديد تستقر فى اطاره الصفوات . بيد أن القضية التى تستحق الاعتبار تتمثل فى أن التغير كما يتصوره باريتو ينحصر فى اطار الصفوات الحاكمة وأن الصفوة التى تنتصر هى التى تفرض رؤيتها على المجتمع ، ومن ثم يحدث التغير الاجتماعى ، اذا فالتغير الاجتماعى كما يراه باريتو يحدث على مرحلتين أو مستويين ، المستوى الأول ، وهو مستوى التغير فى اطار الصفوات . وعادة ما يشكل التغير فى قوة الرواسب مصدرا للتغير فى اطار

الصفوة ، ثم المستوى الثانى ، وهو التغير الاجتماعى الذى تفرضه الصفوة بدورها على الواقع الاجتماعى ، وهو عادة ما يكون انعكاسا لتصوراتها أو نظرياتها التى تعتبر مشتقات لرواسبها الأساسية .

وبالاضافة الى الأبعاد الأساسية السابقة التى تناول باريتو بالنظر اليها قضية التغير الاجتماعى نجد أنه يؤكد على ثلاثة عوامل أساسية باعتبارها العوامل التى تؤسس التغير فى بناء النسق ، سواء على مستوى الصفوات أو على مستوى المجتمع ونذكرها فيما يلى :

(أ) ويتمثل العالم الرئيسى فى اثارة التغير فى بدء النسق فى تغير رواسب الصفوة الحاكمة . فمثلا اذا كانت الصفوة الحاكمة تتكون من الأسود وهى صفوة لها نظرتها القيمية والأيديولوجية المحددة ، فان ضعف رواسبها الأساسية (رواسب الفئة الثانية) وميلها لتبنى رواسب الفئة الثانية يفرض عليها أولا تغيير نظرتها للحياة أو لطبيعة النظريات التى تتبناها ، وهو الأمر الذى يكون له انعكاسه على بناء المجتمع والمرحلة التالية للتفاعل . وثانيا فان تبنيها لرواسب غير رواسبها ، يجعلها معرضة لتجاوزها بواسطة صفوة القوة وهى التى مازالت لديها رواسب (الفئة الثانية) فعالة وقوية .

(ب) أما العامل الثانى فيتمثل فى اهتزاز التوازن فى النسق الاجتماعى . ويحدث ذلك حينما تحاول الصفوة الحاكمة أو غير الحاكمة أن تغلق أبوابها فى وجه أى قادمون جدد من أكثر أفراد المجتمع المحكومين قدرة وفعالية ، أو حينما تعاق دورة الصفوة . هنا نجد أن التوازن يهتز وينهار النظام الاجتماعى . ويؤكد باريتو أنه اذا لم تجد الصفوة الحاكمة الطريق الذى من خلاله تستطيع استيعاب الأفراد ذوى القدرات الاستثنائية والذين يصعدون اليها من الطبقات الدنيا والخاضعة ، فان حالة من عدم الاتزان تتخلق فى الكيان الاجتماعى والسياسى ، وذلك الى أن يمكن اصلاح هذه الحالة . من خلال فتح قنوات جديدة – وهو مايعنى تغيرا – للحراك . أو من خلال الاطاحة العنيفة بالصفوة الحاكمة غير الفعالة وغير المؤثرة بواسطة صفوة جديدة تمتلك امكانات الحكم (١٥٩) .

(ج) ويتمثل العامل الثالث فى امتلاك القوة لفرض التغير الاجتماعى . ويمكن الكشف فى كتابات باريتو عن معنين لاستخدام القوة . ويتعلق المعنى الأول بالقوة التى تستخدمها الصفوات ذات الرواسب القوية ، والتى تقضى بواسطتها على الصفوات الضعيفة لتغيير احكام السيطرة على التفاعلات الكائنة بالسياق الاجتماعى ، وهو مايعنى أنها صفوة تمتلك إمكانات القوة ولا تتردد فى استخدامها .

أما المعنى الثانى لاستخدام القوة فيطرحه باريتو ، بحيث استنادا اليه تستخدم الصفوة الحاكمة القوة لفرض عدم تغييرها ، أو استعادة الأوضاع عن طريق السيطرة على التفاعل الاجتماع بعد أن كانت هذه السيطرة ضعيفة . وفى هذا الاطار يؤكد أنه فى مجتمع تكون فيه الصفوة (أ) لأسباب انسانية أو لأية اعتبارات أخرى غير قادرة على استخدام القوة ، فانها بذلك تتهرب من أحد الواجبات الأساسية للطبقة الحاكمة . مثل هذا المجتمع اذا ظل على هذا النحو ، فهو حتما فى طريقه الى الفناء ، غير أننا نجد أن الصفوة المحكومة (ب) قد تعمل على تطبيق استخدام القوة الى أبعد حد ممكن ، وهى فى استخدامها للقوة لاتطيح بالصفوة (أ) فقط وانما نجدها تقتل أكبر عدد من أفرادها . واذا فعلت ذلك فهى فى الحقيقة تنجز خدمة عامة ومفيدة ، أعنى أنها تفعل شيئا تخلص فيه المجتمع من حيوانات غير مفيدة ، وبسبب ذلك فان النسيج الاجتماعى يكتسب قوة واستقرارا ، حيث ينقذ المجتمع من الدمار وتعاد ولادته من جديد . ويتضح ذلك من تعليق باريتو على احداث الثورة الفرنسية ، فى ١٧٨٩ ، حيث يؤكد أنه لو توفر نوع من الايمان لدى الطبقة الحاكمة ، يشير عليها باستخدام القوة وارادة استخدامها ، فانه كان من الصعب الاطاحة بها ، وكان من الممكن أن تحافظ على امتيازاتها وامتيازات فرنسا فى ذات الوقت . ومع ذلك فقد أدى فشلها فى انجاز هذه الوظيفة ، الى حدوث شئ عظيم يتمثل فى ظهور مجموعة سعت الى امتلاك السلطة وأوضحت ايمانها وارادتها على مواجهة الأمر باستخدام القوة لفرض النظام على الواقع (١٦٠) .

خلاصة الأمر أن باريتو يقدم لنا نظرية فى التغير الاجتماعى تضم مستويين رئيسيين ، الأول قضايا لمعالجة التغير الاجتماعى على مستوى الصفوات فى المجتمع ، وهو التغير الذى قد يتم على مستوى الصفوة إلا أن له انعكاسه الذى يشمل كلية الواقع الاجتماعى والتفاعلات التى تحدث فى اطاره . أما المستوى الثانى فيضم قضايا التغير الاجتماعى والحضارى على مستوى فترة تاريخية يتحرك فى اطارها المجتمع ، وهو ما يعنى تقديم باريتو لرؤية فى التغير الاجتماعى أكثر شمولا وفعالية .

سادسا : نظرية فلفريدو باريتو ، رؤية نقدية .

برغم الانجاز الهائل الذى حققه باريتو فاننا نجد أن الفترة التاريخية السابقة قد شهدت تجاهلا لأفكاره ، وكأن الصاع يرد بصاعين . فمثلما تجاهل هو فكر معاصريه ، تجاهله الورثة الفكريون لعصره . غير أننا برغم ذلك نجد أن باريتو قدم أفكارا مازالت لها وجاهتها فى اطار

النظرية الاجتماعية المعاصرة ، هذا الى جانب أن كثيرا من أفكاره شكلت أساسا لنظريات اجتماعية عديدة كانت عبارة عن انجازات عظيمة حققها الفكر الاجتماعى .

فمن انجازاته تصوره للعلاقة بين علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية الخاصة ، وهو التصور الذى يعتبر أفضل كثيرا من التصورات التى طرحتها النظريات الاجتماعية الأخرى ذات الصلة بالموضوع . هذا الى جانب اتفاق نظريته عن الاعتماد المتبادل بين مختلف الظواهر الاجتماعية ، وأيضا تأكيده على المناهج الكمية والوظيفية لدراستها ، مع الاتجاهات المعاصرة الآن فى العلوم الاجتماعية والطبيعية للدراسة . بل أن صحة وشموخ أفكاره تتبدى من خلال تحليله للسلوك الانسانى أو لدور الرواسب والمشتقات ، وللأفعال المنطقية وغير المنطقية . بل اننا نجد أن نقده الحاد والصارم للطبيعة غير العلمية لكثير من النظريات السوسيولوجية التى سادت عصره مازالت لها وجاهتها الى حد كبير . هذا الى جانب تأكيده القيم على توجيه اهتمامنا للعناصر ذات الدوام النسبى فى بناء النسق الاجتماعى ، بالاضافة الى نظريته المتعلقة بتباين البشر الأفراد ، ونظرياته فيما يتعلق بالتدرج الاجتماعى ودورة الصفوة ، ونقد أيديولوجيات التقدم والديمقراطية والتضامن ، وما الى ذلك ، وهو أمر شارك فيه الكثيرين ، بل أن هناك من تقدموا لتطوير الكثير من أفكاره ، حيث كانت بعض هذه التطويرات مستقلة عن فرضياته بينما تمت الأخرى تحت تأثير أفكاره (١٦١) .

الى جانب ذلك قدم باريتو نقدا للتفسيرات السوسيولوجية العاملية ، والتى تحاول اختزال الحياة الاجتماعية الى عوامل أو أسباب بعينها . ومع ذلك فقد قدم الينا عددا محدودا من العوامل التى أعتقد أنها تتحدد وضع المجتمع والتغير الاجتماعى . فبالنسبة للتغير نجده يؤكد فكرة وجود وانتشار رواسب معينة أو الميل نحو التصرف بأساليب معينة . ويقصد بذلك تلك التى تحقق لدى الصفوة الحاكمة ، واذا فالتغير الذى يطرأ على الصفوة يبدو وكأنه نتيجة لضروة داخلية (١٦٢) .

هذا الى جانب أن باريتو قد قدم مساهمات أساسية تتلخص فى تأكيده على ضرورة خضوع علم الاجتماع للمتطلبات العلمية وتصوره للمجتمع كنسق يحقق توازنا ديناميا . وفيما يتعلق بالمفهوم الأخير ، نجد أن القضايا التى قدمها باريتو تصور ميل الأنساق الاجتماعية نحو استعادة توازنها اذا ما طرأ عليها أى اختلال . بالاضافة الى العوامل التى تسهم فى تحديد ظروف الأنساق الاجتماعية ، وأهمية السلوك غير المنطقى فى الحياة الاجتماعية والطابع

الدورى للتغير الاجتماعى الذى يتميز بوجود فترات تغير بطئ ، تتبعها تعديلات سريعة . كل هذه القضايا يمكن اعتبارها صياغات جديدة تتسق عموما مع الظروف الواقعية (١٦٣) .

هذا بالاضافة الى أن قوله بالرواسب كعامل مفسر لاستقرار وتغير المجتمع ، يعتبر طرحا لمتغير جديد يمكن أن يفيد فى فهم الواقع الاجتماعى . واذا كانت النظريات العاملية قد ارتكبت خطأ النظر الى الوجود الاجتماعى من زاوية ضيقه ، فانها أفادت فى أنها القت الضوء واضحا على متغيرات ذات أهمية وفاعلية فى صياغة التفاعل الاجتماعى ومنها الرواسب . ومن ثم فيمكن القول بأن باريتو قد قدم اسهاما واضحا فى اطار النظرية العامة عن طريق القائه الضوء الواضح حول فاعلية أحد متغيرات الوجود الاجتماعى .

غير أننا مع ذلك نجد أن باريتو قد سقط فى بعض الأخطاء الأساسية ، فمفهومه عن الرواسب ظل مفهوما غير محدد الى حد ما ، هذا الى جانب أنه مفهوم ذاتى فى جوهره . يمعنى أن باريتو تناوله باعتباره نوعا من الدوافع الداخلية (العاطفة ، الغريزة) التى تستعصى على القياس والدراسة الموضوعية . ومثل كثير من علماء النفس وضع باريتو هذه الرواسب فى الانسان ، وبدأ يستنبط منها مايريد . ولهذا السبب فكل الاعتراضات التى نطرحها فى مواجهة التفسيرات السيكولوجية نطرحها فى مواجهة نظرية ومنهج باريتو . ذلك أن باريتو لم يستطع تجاوز أخطاء النزعة السيكولوجية ، من ذلك أنه من المستحيل مثلا دراسة هذه الدوافع الداخلية كميا وموضوعيا . وبرغم ميل باريتو الى هذه الدراسة الكمية فانه لم يستطع أن يقدم بحثا كميا لمثل هذه الرواسب ، وذلك هو السبب فى أن تصنيف باريتو للرواسب يبدو تعسفيا وناقصا ، وموضع شك . ومن الطبيعى أن هذا التصنيف قد أثر بنفس الطريقة على كثير من استنباطاته واستنتاجاته .

من الصعب أيضا أن نميز بين الرواسب عند باريتو والمصالح باعتبارها عوامل اقتصادية ، اذ أن الخط الفاصل بينها غير محدد بطريقة واضحة . ولهذا السبب أصبح من الصعب أن تحدد درجة التأثير التى مارسها كل من هذه العوامل فى تحديد التوازن الاجتماعى .

بالاضافة الى ذلك نجد أن باريتو قد أكد مرارا على حقيقة أن نفس الراسب يمكن أن يتشح بمشتقات مختلفة ، ولهذا السبب فانه من غير المؤكد بصورة محددة تحديد أى من الرواسب مصدرا لأى من المشتقات . وقد جعلت هذه الحقيقة كثيرا من استنادات باريتو للمشتقات لرواسب معينة موضع تساؤل وشك قد تكون نتائجه صحيحة أو خاطئة . ولهذا السبب

فنحن كمن يسبح فى البحر لايعرف العلاقات الحقيقية بين الرواسب والمشتقات .

وأخيرا فاننا نجد أن نظرية باريتو فيما يتعلق بدورة الصفوة عامة للغاية وناقصة . وتحتاج الى تصحيحات وتطويرات كثيرة .

ماسبق اذا يحاول أن يوضح نقاط الضعف فى نظرية باريتو ، ومع ذلك فان هذا النقد لايلغى الاسهامات المنهجية القيمة التى قدمها للعم الاجتماعى . وأيضا اسهاماته فى علم اجتماع الأيديولوجيات وردود الفعل الانسانية اللفظية . أو اسهاماته فى دراسة الظاهرة الاجتماعية ككل . حيث تعتبر انجازاته فى هذه الصدد أفضل استمرار لخطة عمل الفيزيقا الاجتماعية التى طورها مفكروا القرن السابع عشر ، حيث حاول باريتو تنفيذ هذه اللحظة (١٦٤) .

ويمكن القول بأنه منذ نشر كتاب س . رايت ميلز عن (صفوة السلطة Power Elite) يوجد اتجاه لاعادة احياء انجازات باريتو فى أمريكا . حيث ظهرت مؤلفات كثيرة منها مؤلف سوزان كيلر Suzzanne Keller (ماوراء الطبقة الحاكمة) وكتاب بوتو مور عن (الصفوة والمجتمع) وبالمثل اختيارات فاينر S. E. Finer وجوزيف لوبيريتو Joseph Lopreto من أعماله . وقد حدث نفس الشئ فى أوربا ، حيث نجد تجديدا للاهتمام بباريتو ، تشهد على ذلك أعمال ريمون آرون فى فرنسا وأعمال جيجى Jaeggi وأيزرمان Eisermann فى ألمانيا . وحسبما يذهب لويس كوزر ، أنه اذا تاكد لنا أن الزمن قد حيد التحيزات الأيديولوجية لباريتو فانه قد بقى لنا فكرة شامخا – يمارس تأثيره الفعال على العلوم الاجتماعية (١٦٥) .

مراجع الباب الخامس

1. Coser, L : Masters of Social Thought, Harcourt Brace, Jovanovich, Inc. New York. 1977. p, 422.
2. Ibid. pp, 402-403.
3. Ibid. p, 403.
4. Ibid. p,
5. Martindale, Don : The Nature and Types of Sociological theory Routledge & Kegan Paul, 1967. p, 101.
6. Lewis Coser : Op, Cit. p, 421.
7. Ibid. p, 40.
8. Ibid. p, 405.
9. Barnes, H. E. : Social thought From Lore to Seience. Routledge & Kean Poul. Vol. 2. 1957. p, 409.
10. Zeitlin, I : Ideology and The development of Sociological Theory. Prentice-Hall -New Delhi, 1969 p, 160.
11. Ibid. p, 160.
12. L. Coser. p, 418.
13. Ibid. p, 421.
14. Ibid. p, 421.
15. Ibid. p, 412.
16. I. Zeitlin : Op, Cit. p, 165.
17. Ibid. p, 165.
18. L. Coser : Op, Cit. p, 402.
19. H. E. Barnes : Op, Cit. p, 430.
20. Parsons, T. : The Structure of Social Action. The Free Press, New York, 1937. p, 270.
21. L. Coser : Op, Cit. p, 387.
22. Sorokin, P. : Contemporary Sociological Theories. Harper & Row. New York. 1928.

ooo

p, 40.

23. T. Parsons : Op, Cit. p, 181.
24. Ibid. p, 181.
25. I. Zeitlin : Op, Cit. p, 179.
26. L. Coser : Op, Cit. p, 407.
27. Ibid. p, 410.
28. P. Sorokin : Op, Cit. p, 41.
29. Ibid. p, 41.
30. L.Coser : Op, Cit. p, 411.
31. H. E. Barnes : Op, Cit. p, 422.
32. Don-Martindale : Op, Cit. p, 111.
33. L. Coser : Op, Cit. p, 411.
34. Ibid. pp, 411-412.
35. Ibid. p, 409.
36. Ibid. p, 409.
37. H. E. Barnes : p, 411.
38. T. Parsons : Op, Cit. p, 220.
39. Ibid. p, 221.
40. L. Coser : Op, Cit. p, 420.
41. I. Zeitlin : Op, Cit. p, 159.
42. Ibid. p, 159.
43. Ibid. p, 159.
44. Ibid. p, 168.
45. Levingston, Arthur (ed) : Mind and Society, New York, 1935, Vol. 2. p, 311.
46. Ibid. p, 309. and See also T. Parsons : Op, Cit. p, 179.
47. Aron, Raymond : Main Currents in Social thought. New York Basic Books, Vol. 2. p, 134, and See also L. Coser : Op, Cit. p, 412.

48. I. Zeitlin : Op. Cit. pp. 165-166.

49. Ibid. p. 168.

50. Ibid. p. 168.

51. T. Parsons : Op. Cit. p. 179.

52. L. Coser : Op. Cit. p. 312.

53. I. Zeitlin : Op. Cit. p. 165.

54. R. Aron : Op. Cit. p. 146.

55. L. Coser : Op, Cit. p, 389.

56. Henderson, L. J. : Pareo's General Sosiology. Prentice Hall. New York. 1968. p. 134.

57. Don Martindale : Op, Cit. p. 102.

58. L. J. Henderson : Op. Cit. p. 71.

59. T. Parsons : Op. Cit. p. 71.

60. T. Parsons : Op. Cit. p. 183.

60. P. Shokin : Op. Cit. p. 41. and See also Don Martindale : Op. Cit. p. 102.

62. L. J. Henderson : Op. Cit. p. 89.

63. Don Martindale : Op. Cit. p. 103.

64. Ibid. pp. 103-104.

65. Finer. S. E. : Vilfredo Pareto, Sociological writtings. New York Praeger, 1966. p. 173.

66. T. Parsons : Op. Cit. p. 220.

67. P. Sorokin : Op. Cit. pp. 40-41.

٦٨- نيقولا تيماشيف : نظرية علم الاجتماع، طبيعتها وتطورها، ترجمة محمود عودة وآخرون. دار المعارف. الطبعة الخامسة، ١٩٧٨، ص ص ٢٣٩-٢٤٠.

69. L. Coser : Op. Cit. pp. 382-389.

70. P. Sorokin : Op. Cit. p. 53.

71. T. Parsons : Op. Cit. pp. 181-182 and See also S. E. finer : Op. Cit. p. 170.

72. L. coser : Op. Cit. p. 389.

73. T. Parsons : Op. Cit. p. 197.

74. I. Zeitlin : Op, Cit. pp, 162-163.

75. T. Parsons : Op, Cit. p, 185.

76. P. Sorokin : Op, Cit. p, 37.

77. Ibid. pp, 44-46.

٧٨- نيقولا تيماشيف : مرجع سابق، ص ٢٤٨.

79. P. Sorokin : Op, Cit. pp, 43-44.

80. I. Zeitlin : Op, Cit. p, 186.

81. Meisel, J. E. : Pareto and Mosca. Englewood-Cliffs, New Jersey. Prentice-Hall. 1965. p, 84.

82. I. Zeitlin : Op, Cit. p, 181.

83. Ibid. pp, 163-164.

84. P. Sorokin : Op, Cit. p, 181.

85. L. Coser : Op, Cit. p, 394.

86. Ibid. p. 395.

٨٧- نيقولاتيماشيف : مرجع سابق ، ص ٢٤٢.

٨٨- نفس المرجع : ص ٢٤٣.

89. P. Sorokin : Op, Cit. p, 47.

٩٠- نيقولا تيماشيف : مرجع سابق. ص ٢٤٠.

91. J. E. Meisel : Op, Cit. p, 87.

92. I. Zeitlin : Op, Cit. p, 186.

93. Ibid. p, 166.

94. Ibid. pp, 176-177.

95. L. Coser : Op, Cit. p, 413.

96. Ibid. pp, 413-414.

97. Ibid. p, 414.

98. Ibid. p, 414.

99. Ibid. p, 415.

100. Ibid. p, 414.

101. Ibid. p, 415.

102. Ibid. p, 417.

103. S. E. Finer : Op, Cit. p, 170.

104. E. Parsons : Op, Cit. p, 179.

105. R. Aron : Op, Cit. p, 137.

106. T. Parsons : Op, Cit. p, 235.

107. I. Zeitlin : Op, Cit. p, 191.

108. R. Aron : Op, Cit. p, 120.

109. P. Sorokin : Op, Cit. pp, 48-49.

110. T. Parsons : Op, Cit. p, 200-201.

111. P, Sorokin : Op, Cit. p, 53.

112. Ibid. p, 54.

113. Ibid. pp, 55-56.

114. L. Coser : Op, Cit. pp, 398-399.

115. I. Zeitlin : Op, Cit. pp, 169-170.

116. P. Sorokin : Op, Cit. pp, 49-50.

117. I. Zeitlin : Op, Cit. p, 174.

118. T. Parsons : Op, Cit. p, 279.

119. I. Zeitlin : Op, Cit. pp, 174-175.

120. Ibid p, 174.

121. T. Parsons : Op, Cit. p, 279.

122. I. Zeitlin : Op, Cit. pp, 175-176.

123. Ibid. p, 174.

١٢٤- سمير نعيم : النظرية فى علم الاجتماع، دار المعارف. الطبعة الثانية ١٩٧٩، ص ١٣٨.

١٢٥- نيقولا تيماشيف : مرجع سابق، ص ٢٤٤.

126. I. Zeitlin : Op, Cit. p, 177.

127. Ibid. p. 174.

128. Ibid. pp. 177-178.

١٢٩- نيقولا تيماشيف، مرجع سابق، ص ص ٢٤٤-٢٤٥.

130. I. Zeitlin : Op. Cit. p. 178.

131. Ibid. p. 179.

132. Ibid. p. 181.

133. Ibid. p. 182.

١٣٤- نيقولا تيماشيف، مرجع سابق . ص ٢٤٤.

١٤٠- سمير نعيم : مرجع سابق. ص ص ١٤١-١٤٢.

141. P. Sorokin : Op. Cit. pp. 49-54.

١٤٢- سمير نعيم : مرجع سابق، ص ١٤١.

١٤٣- نيقولا تيماشيف : مرجع سابق . ص ٢٤٦.

144. L. Coser : Op. Cit. p. 397.

145. t. Parsons : Op. Cit. pp. 279-281.

146. L. Coser : Op, Cit. p. 497.

147. Ibid. pp. 397-398.

148. Ibid. p. 399.

149. P. Sorokin : Op. Cit. p. 56.

150. T. Parsons : Op, Cit. p. 282.

151. L. Coser : Op, Cit. p. 396.

152. T. Parsons : Op. Cit. p. 279.

153. L. Coser : Op, Cit. p. 393.

154. T. Parsons : Op. Cit., p. 579.

155. L. Coser : Op, Cit. p. 399.

156. Ibid. p. 398.

157. t. Parsons : Op. Cit. pp. 280-286.

158. P. sorokin : Op. Cit. p. 328.

160. I. Zeitlin : Op, Cit. p, 191.

161. P. Sorokin : Op, Cit. p, 60.

١٦٢- نيقولا تيماشيف : مرجع سابق. ص ٢٤٩.

١٦٣- نفس المرجع : ص ٢٥٠.

164. P. Sorokin : Op, Cit. pp, 59-62.

165. L. Coser : Op, Cit. pp, 425-426.